الفصل الثالث

الحضارة الليبية القديمة

طرابلس من فجر التاريخ

حتى بداية القرن السادس قبل الميلاد عندما أسس الفينيقيون أول محطة تجارية لهم في صبراتة

تاريخ الإقليم الطرابلسي في هذه المرحلة أشبه بتاريخ فزان من حيث غموضه وقلة مصادره. وأحسن مصدر لنا عن تاريخ هذه المنطقة وبعد الفترة التي نتحدث عنها هو هيرودوتس الذي حدثنا بالكثير عن القبائل الليبية وعاداتها. وليس أمامنا من خيار سوى أن نرسم صورة لأحوال هذا الإقليم ونمط الحياة فيه كما صورها هيرودوتس. ونفترض قياساً عليها أن أحواله منذ أقدم عصووره التاريخية حتى زمن هيرودوتس (القرن الخامس قبل الميلاد) كانت إلى حد كبير تشبه ما كانت عليه أيام هيرودوتس وإن كانت أكثر بدائية من ذلك.

كانت ليبيا عند هيرودوتس تبدأ من غربي النيل وتمتد حتى شاطىء المحيط الاطلسي. ومن الجنوب كانت تحدها بلاد الإثيوبيين السود ذوي الشعور التي تشبه الصوف. ووصف هيرودوتس ليبيا الشرقية (وهي تقريباً ليبيا الحالية) بأنها مأهولة بالبدو الرحل. وقد عدد من قبائلها:

1- الأدرماخيدي (Adyrmachidae): وكانت تشغل المنطقة من دلتا النيل في الشرق إلى ميناء بلاينوس (Plynos)[1] في الغرب.

2- الجليجامي (Giligamae): وكانت منازلها تمتد بين ميناء بلاينوس في الشرق إلى جزيرة أفروديسياس (Aphrodisias)[2] في الغربْ

3- الاسبستي (Asbystae): وكانت تشغل المنطقة إلى الغرب من ديار الجليجامي وتمتد في الداخل بعيدة عن الساحل حتى موازاة قورينة التي كان الإغريق قد استوطنوها.

1- ميناء البردية أو سيدي براني؟

2- جزيرة الشرقية أو الحمام أو جزيرة كرسة إلى الغرب من درنة؟

4- الأوسخيزي (Auschisae): وكانت ديارها تمتد إلى الجنوب من مدينة برقة (= المرج) وحتى يوسبيريدس (= بنغازي).

5- البكالي (Bacales) وهي قبيلة صغيرة كانت تعيش ضمن أراضي القبيلة الرابعة حول ساحل توكرة.

6- الناسامونيون (Nasamones): قبيلة كبيرة كانت تنتشر إلى الجنوب الغربي من القبيلة الرابعة. وكانوا يحتلون المنطقة الساحلية حتى خليج سرت الكبير وينتشرون في الداخل حتى أوجلة.

7- البسلِّي (Psylli): وكانوا في الأصل يقيمون حول خليج سرت الكبير ولكن منطقتهم خضعت للناسامونيين.

8- المكاي (Macae): وكانوا يقيمون على شواطئ خليج سرت إلى الغرب من الناسامونيين ويجري نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) إلى بحرهم قادماً عبر أراضيهم من تل يقال له تل الحسان (= مرتفع إلاهات الجمال الثلاث (Three Graces) بهضبة ترهونة؟).

9- الجندانيون (Gindanes): وكانوا يقطنون أقصى غرب الساحل الليبي، يبدو أنهم كانوا يشكلون قسماً قوياً من اللوتوفاجي (أكلة اللوتس أو النبق).

10- الماخلاي (Machlyes): وكانوا يقيمون إلى الغرب من الجندانيين «وتصل مواطنهم إلى نهر عظيم يقال له تريتون وهو يصب في بحيرة تريتون العظيمة (= شط الجريد)».

ونحن لا نزعم أن القبائل التي ذكرها هيرودوتس كانت على الساحل الطرابلسي (الأرقام 6-10) منذ فجر التاريخ. ولكنا نقول إن هذا الساحل كان مأهولاً منذ بداية تاريخه بقبائل تعيش عيشة بدوية كان قوامها في مراحلها الأولى جمع المواد الغذائية ثم الصيد. ثم امتهنت الرعي إلى جانب الصيد. ولم تلبث أن بدأت في عصر هيرودوتس تمارس الرعي والزراعة جنباً إلى جنب. ويستفاد مما كتبه هيرودوتس أن سكان الساحل الطرابلسي القدماء

كانوا أقل تقدماً من جيرانهم الليبيين الغربيين الذين عرفوا حياة الزراعة والاستقرار في منازل ثابتة في وقت كان سكان الساحل الطرابلسي فه لا يزالون غارقين في بداوتهم. وسنتحدث عن عادات ليبيي الساحل الطرابلسي وتقاليدهم وما قطعوه نحو التقدم الحضاري في الفصل التالي.

فزان من فجر التاريخ
حتى ظهور الجرامنتيين حوالي القرن الثامن قبل الميلاد

تحدثنا قبل قليل عن أحوال الصحراء الليبية في عصر ما قبل التاريخ وبيَّنا كيف كانت تعج بالحيوانات والوحوش والنباتات والناس. وقد عرفنا أنه ابتداء من حوالي سنة 2500 ق. م. كان الإنسان الذي يعيش في مناطق فزان يخرج من عصر حضارة الصيادين ويدخل عصر حضارة الرعاة نسبة للرعاة طوال القامة الذين نزلوا فزان في هذا الزمن[3]. ولما كانت مصادرنا عن هذه الفترة من تاريخ هذا القسم من ليبيا لا تزودنا إلا بالنزر اليسير من المعلومات فليس أمامنا إلا أن نفترض أن سكان هذه المنطقة استمروا يعيشون عيشة الصيادين والرعاة. ونحن عندما نتحدث عن هذه المنطقة تحت عنوان فزان فإننا إنما نقصد بها كل المناطق الداخلية في ليبيا بمفهومها الجغرافي الحديث؛ ذلك إن فزانيا كانت في العصر الروماني، ولابد أنها كانت قبله كذلك، تشمل «جميع الأراضي الواقعة خلف الجبال إلى الجنوب من ناحية غريان الحالية كما كانت تقترب من البحر اقتراباً شديداً في المنطقة الواقعة شرقي لبدة وتمتد حتى قرب أوجلة شرقاً، ومن المحتمل أنها كانت تشمل منطقة واحات الكفرة والعوينات الشرقية. أما غرباً فقد كانت تمتد من غدامس شمالاً حتى غات وربما وارجلا جنوباً»[4].

أما عن سكان هذه المنطقة الداخلية الواسعة التي كانت تغلب عليها الطبيعة الصحراوية بشكل يشبه ما هي عليه اليوم. فنحن لا نكاد نعرف شيئاً سوى ما رواه المؤرخ الإغريقي هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد. في أعقاب جولة له في ليبيا زار خلالها مدينة قورينة (= شحات) وجمع كثيراً من المعلومات الهامة عن ليبيا سجلها في كتابه الرابع[5] حيث يقول

3- انظر ص 32.
4- أيوب، محمد سليمان، مختصر تاريخ فزان منذ أقدم العصور حتى سنة 1811 م، المطبعة الليبية، طرابلس الغرب، ص 11.
5- انظر الملحق «ب» من هذا الكتاب.

عن هــذه المنطقة: «ويســكـن الجنــوب الجرامنتس (والصحيــح الجامفزانتس Gamphasantes) فـــي أرض الوحوش. وكانوا يفرون من منظر الناس. وينفرون من صحبتهم. ولم تكن لهم أسلحة حرب. ولم يكونوا يعرفون كيف يدافعون عن أنفســهم». وفـــي موضع آخر يقول هيرودوتس: «تحدثـت عن كل الليبيين الرعاة الذين كانوا يعيشون على ساحل البحر. وفي أعماق الداخل توجد بلاد ليبيا التي تســرح فيها الوحوش. ولكن بعــد أرض الوحوش هذه. يوجد نطاق من الرمال يمتد من طيبة في مصر إلى أعمدة هرقل. وعلى مراحل كل واحدة منها تستغرق مسيرة عشرة أيام توجد أكمات من الملح في نجاد رملية. ويعلو كل نجد نبع يقذف من وسـط الملح بماء بـارد عذب. وحولها يقيم القوم الذين تقع مضاربهم بعيداً في الصحراء وإلى الداخل من أرض الوحوش».

ولقد أكد الكاتب الروماني استرابو (66 ق. م. - 24 م) ما ذكره هيرودوتس وأضـاف إليــه عن دواخخل ليبيا قوله: «إننا لا نعرف شـيئاً عن أغلب القبائل التي تســكن ليبيا لأن الجيــوش الأجنبيــة والرحالة الأجانب قليــلاً ما ارتادوا البقاع الداخلية. كما وأن القليل جداً من سكان تلك الجهات هم الذين جاءوا إلى مدننا بالشــاطئ. وحتى هؤلاء القلة قلما يذكرون أية أخبار مفصلة عن بلادهم. وعلى كل حال فإنني أروي المعلومات التالية نقلاً عنهم: «يسكن في أقصى جنوب ليبيا الأقوام المســمون باســم الإثيوبيين. وإلى الشــمال منهم يســكن الجرامنت أغلب الجهات. وإلى جوارهم الفاروســي (Pharusii) والزنوج (Nigriti). وإلى الشمال هؤلاء يعيش الجتّولي (Gattoli).

ويفهم مما كتبه هيرودوتس والكتاب الكلاســيكيون من بعده أن ســكان فــزان قبل قــدوم الجرامنتيين كانوا عبارة عن ســلالتين مختلفتين: الســلالة الأولى إثيوبية وكان أبناؤها طوال القامة. ســمر الوجوه. ماهرين في الرســم والتصوير الصخري. مســالمين. يســتعملون أســلحة وأدوات بسيطة لأنهم يجهلــون الأســلحة والأدوات المعدنية. ويشــتغلون برعي الأبقــار في الأدوية والســهول. ولعلهم لم يتعدوا حضارة العصر الحجري الحديث. أما السلالة

الثانية فكانت من الزنوج الذين كانوا يسكنون الكهوف في حمادة مرزق وما جاورها. وكانوا قوماً قصار القامة يعيشون على الأفاعي والديدان والحشرات. ولعــل هــؤلاء الأقوام الذيــن أطلق عليهــم هيرودوتس اســم «التروجلودايت Troglodytes» هــم أســلاف «الــدوادة» فــي أيامنا هــذه من ســكان مندرة وقبرعــون. وقد كان مصير هؤلاء الأقوام الخضــوع للجرامنتيين الأقوياء الذين تغلبوا عليهم بفضل أســلحتهم وعرباتهم الحربية وأسموهم جامفزانتس واســترقوهم ليراعوا لهم الماشــية أو يشتغلوا في المزارع أو يؤدوا أية خدمات أُخــرى يكلفهــم بها أســيادهم الذين كانــوا قد نصبوا أنفســهم كطبقة عسكرية حاكمة في البلاد حوالي القرن الثامن من قبل الميلاد.

الحضارة الليبية القديمة

نعني بكلمة حضارة كل ما ينتجه الفرد وكل ما ينتجه المجتمع الإنساني في جميع مجالات الحياة سواء كان ذلك الإنتاج فكرياً أو مادياً. وإذن فإن أسهل الطرق لدراسة حضارة شعب من الشعوب هي أن نأخذ مظاهر تلك الحضارة وندرسها واحداً واحداً ثم ندمج تلك الجزئيات في كل واحد، هو الصورة الشاملة المجملة للحضارة موضوع البحث. ولقد سبق لنا أن لمحنا شيئاً من حضارة الليبيين في عصر ما قبل التاريخ. وسنحاول الآن أن نبرز ملامح هذه الحضارة في الفترة التي نبدأ ببدء التاريخ الليبي، وتمتد عبر مرحلة جديدة من مراحل هذا التاريخ تتحدد معالمها بنزول الإغريق في منطقة برقة، ونزول الفينيقيين في منطقة طرابلس واستقرار الجرامنتيين في منطقة فزان. ومظاهر هذه الحضارة أو مقوماتها هي: اللغة، والمجتمع ونظام الحكم، والاقتصاديات من صيد ورعي وزراعة وتجارة وصناعة، والعادات والتقاليد والأزياء والمساكن والعمران والأدوات والفنون والدين.

1- اللغة الليبية القديمة:

يقول أوريك بيتس (Oric Bates) في فصل ممتع عن هذا الموضوع[6]: «إن أصل اللغة التي تكلمها الليبيون منذ فجر التاريخ غير معروف تماماً كما هي الحالة بالنسبة لأصل الليبيين أنفسهم. ولعل من الأفضل أن توضع كل التكهنات الخاصة بهذا الموضوع على الرف إلى أن يتم تجميع المزيد من الأدلة والبينات».

وقد خرج بيتس من مقارنة عقدها بين اللغة الليبية (البربرية) القديمة واللغة المصرية إلى أن العلاقة بينهما في القواعد والمفردات علاقة وثيقة ولكن ليس من المعروف أين تم ذلك الاتصال والتداخل وما إذا كان قد تم بينهما في مصر السفلى أو العليا. وعلى أي حال فإن الدلائل تشير إلى أن اللغة

6- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, p. 74.

الليبية القديمة تمتعت بقسط وافر من الاستمرارية منذ عصر ما قبل التاريخ حتى العصور الحديثة.

ولا يتعدى أقدم نقش كتب بأبجدية اللغة الليبية القديمة القرن الرابع قبل الميلاد. وقد تم في القرن السابع عشر الميلادي اكتشاف نقش اشتهر باسم نقش «ثجّا Thugga» وقد سجل باللغتين الليبية والفينيقية[7]. ومنذ ذلك الحين كثرت التكهنات حول أصل أبجدية الشمال الإفريقي التي تطلق عليها أسماء مختلفة فتسمى ليبية أو نوميدية أو بربرية أو ليبية – بربرية. وحول أصل سليلتها التفيناغ (Tefinagh). وقد عزي أصل الأبجدية الليبية للمصرية وللإغريقية والوندالية والفينيقية الحديثة. وبالرغم من كثرة النظريات التي ظهرت حول هذا الموضوع إلا أن نظرية هاليفي (Halevy) – أواخر القرن التاسع عشر – لا تزال أقواها. وقد قارن هاليفي الأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة في الشمال الإفريقي فوجد ستة من الحروف الليبية الثلاثين لها نظائر قديمة في الأبجدية الفينيقية الحديثة تمثل نفس الأصوات مما يدل على أن فكرة الكتابة وبعض الحروف الليبية – ليس كلها – اشتقت من الفينيقية ثم أُضيفت لها علامات من مختلف بلدان البحر الأبيض المتوسط أخذت عن العلامات التي كان الملاكون أو الصناع يسجلونها على منتوجاتهم من الخزفيات وغيرها، وضمت إلى الحروف الليبية لاستكمال أبجدية ليبية تكون بسيطة وعملية وتفي بالحاجة. ويرى هاليفي وليتورنو (Letourneux) أن الأبجدية التي تطورت على هذا النحو تتكون – كما تظهر في النقوش الأثرية – من ثلاثين حرفاً.

ويذكر أن أكثر النقوش التي وجدت باللغة الليبية إنما تم العثور عليها في الجزائر وتونس، وهما منطقتان كان سكانهما الأصليون يعيشون عيشة مستقرة، ويحتكون كثيراً بالفينيقيين[8]. وقد وجدت نقوش باللغة الليبية

7- هذا النقش موجود حالياً في المتحف البريطاني في لندن.

8- كان لليبيين في شمال غربي إفريقيا نظامهم الوطني للكتابة فكانت اللهجات الليبية (البربرية) تكتب بأبجدية خاصة بها. وقد وجدت في نوميديا نقوش بالأبجدية الليبية ترجع

خارج هاتين المنطقتين حتى سيناء شرقاً ولكن بأعداد قليلة مما يدل على أن الليبيين الغربيين في تونس والجزائر، ولذلك فإن حاجتهم للأبجدية وللكتابة كانت أقل بكثير من حاجة سكان نوميديا مثلاً، فكثيراً ما كان النوميديون يخلدون ذكرى موتاهم بكتابة أشياء مناسبة على حجارة قبورهم. ولذلك فإن استثناء النقوش الليبية القليلة التي وجدت في سيناء، ووفي برقة، وفي بعض الواحات يثير مجالاً واسعاً من الشك في القول إن الليبيين القدماء قد عرفوا فن الكتابة.

2- نظام الحكم والمجتمع والتقاليد:

من المسلم به أن الأسرة هي أساس المجتمع – وفي الحديث عن الأسرة الليبية القديمة لابد أن نشير منذ البداية إلى أن الآثار المصرية والمصادر الإغريقية والرومانية تجمع على أن تعدد الزوجات كان أمراً شائعاً بين الليبيين القدماء، فهذا «سلّوست Sallust»[9] يشير إلى أن الزواج السياسي بين المواطنين الإفريقيين لم تكن له أهمية تذكر « لأن الرجل الواحد منهم يستطيع أن يقتني أي عدد يريده من الزوجات ما دام متناسباً مع مقدرته على إعالتهن، فبعضهم له عشر زوجات، والبعض الآخر له أكثر من ذلك، ولكن الملوك هم الذين يقتنون من الزوجات أكثر من غيرهم. وعلى هذا الأساس يتقسم حب الزوج بين عدد كبير من الزوجات فتكون النتيجة ألا تصبح أية

إلى القرن الثاني قبل الميلاد وأخرى ترجع إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد. ولكن لم يقرأ منها إلا بعض كلماتها. ويبدوا أن أبجديتها كانت صوتية مكونة من ثلاثة وعشرين حرفاً صحيحاً، ولذلك اعتقد «جزل Gsell» أن الأبجدية الليبية لم تكون سوى تطوير محلي لأفكار نقلها الليبيون القدماء عن قدماء التجار الفينيقيين. انظر أيضاً:
The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Museum of American Archaeology & Ethnology, Harvard University, Vol. XIX – No. 1, 1941, pp 102 – 107.

9- مؤرخ لاتيني ولد سنة 87 ق. م. وكان من أنصار يوليس قيصر فولاه الحكم بالولاية الجديدة في إفريقيا ومنحه لقب برايتور «Praetor»، واستمر سلوست في الولاية من 46 – 45 ق. م. وجمع ثروة طائلة بوسائل مفضوحة وطرق غير شرعية. وقد ألف سلوست كتابه المشهور «حروب يوغرثا».

منهن رفيقة للزوج بل يتساوين كلهن في الإهمال». ويتفق هذا القول مع ما رواه المؤرخ البيزنطي «بروكوبيس Procopius» عن رد الرؤساء الليبيين على القائد البيزنطي سليمان «Solomon» عندما هددهم بأن يقتل رهائنهم لديه، فكان جوابهم على ذلك التهديد أن قالوا له: «إنه يتحتم عليك، أنت الذي لا يستطيع أن يتزوج أكثر من واحدة، أن تقلق بشأن ذريتك، أما نحن الذين يستطيع الواحد منا أن يتزوج أكثر من خمسين زوجة إن شاء، فإنا لا نخشى أن تنقطع ذريتنا».

ويقول هيرودوتس إن كل رجل من الناسامونيين كان له عدة زوجات. وقد سبق أن لاحظنا أن نقوش الكرنك ذكرت أن الفرعون مرنبتاح أسر «اثنتي عشرة امرأة من نساء الأمير الليبي مريي». ويفهم من النقوش المصرية أن عادة تعدد الزوجات كانت شائعة على نطاق واسع بين الليبيين، ولكن يبدو أنهم كانوا يحتفظون بما نعرفه بجناح حريم تحتل إحدى الزوجات فيه المرتبة الأولى بين بقية الزوجات.

ولعل ظاهرة تعدد الزوجات على نطاق واسع بين الليبيين القدماء هي التي أدت إلى وقوع عدد كبير من الكتاب الإغريق والرومان في الخطأ عندما تحدثوا عن انتشار ما يشبه أن يكون إباحية جنسية. فها هو هيرودوتس يقول عن الناسامونيين والمساجيتي «Massagetae» إن الرجل منهم، حتى ولو كان متزوجاً، كان يتمتع بنساء الآخرين من أبناء قبيلته. ويقول عن الجندانيين إن نساءهم كن يلبسن خلاخيل من الجلد في سيقانهن بحيث يمثل كل خلخال واحداً من عشاق المرأة الذين نالوا وصالها والمرأة التي تبرز أكبر عدد من هذه الخلاخيل على ساقيها تحظى بأكبر تقدير في القبيلة لأن ذلك يعتبر برهاناً على جمال خَلْقها وخُلُقها وبالتالي على مقدرتها في اجتذاب العدد الأكبر من رجال القبيلة. ويقول عن الأوزيين «Auses» إنهم لا يتزاوجون وإنما يعيشون سوية كقطيع من الحيوانات، وعندما يكبر الأطفال كان مجلس القبيلة الذي يضم كل رجالها البالغين يجتمع ليقرر إلحاقهم

بمن يشبهونهم من الرجال».

ويناقش أوريك بيتس[10] هذه التهم فيعتبرها أخطاء وقع فيها قدماء الكتاب الإغريق والرومان لعجزهم عن تفهم ظاهرة تعدد الزوجات ويورد حجتين يدعم بهما رأيه: الأولى أن الأوزيين كانوا ينزلون عقوبة الموت بالفتاة المشتركة في بعض طقوسهم الدينية إذا تبين لهم أنها كانت فاقدة لعذريتها، وقوم هذه صفتهم لا يمكن أن يصح عليهم ما قاله هيرودوتس عنهم. والثانية أن نمطاً من قرابة الدم كان شائعاً في شمال إفريقيا ممّا يدل على أن القوم كانوا متفقين على نوع من الزواج يكفي لتحديد قرابة الدم في نطاق الأسرة والعشيرة والقبيلة.

وعادات الزواج المعروفة عن قدماء الليبيين قليلة؛ فمن المعروف أن قبيلة الأدرماخيدي كانوا يحضرون كل الفتيات المقبلات على الزواج إلى ملكهم ليختار من شاء من بينهن فيتمتع بها قبل زواجها[11]. وبين قبيلة الأوجلي «Augilae» كانت العادة أن تسمح العروس عشية زفافها لمن أراد أن يتمتع بها أن يفعل ذلك مقابل أجر معين، وكان ذلك يعتبر تكريماً لها. ولكنها كانت بعد ذلك تبقى مخلصة لزوجها[12]. وربما كانت العادة الأولى ترتبط بنوع من الخوف الديني من تحمل المسؤولية الناجمة عن إزالة البكارة، أما الثانية فترتبط بعادة الجندانيين البدائية في السماح للفتاة بممارسة ذلك التقليد لكي تجمع مهراً كافياً لإعانتها في حياتها الزوجية المقبلة.

وأغرب من هاتين العادتين ما قيل عن قبيلة «الماخلاي» (Machlyes) أنه عندما كان يتقدم لخطبة الفتاة أكثر من خاطب، كان ولي أمرها يقيم لهم جميعاً حفلة تحضرها الفتاة ويتنافس المتقدمون لخطبتها في إلقاء النكت على مسامعها فمن نجح منهم في إضحاكها قبل غيره كانت زوجة له.

ويجب ألا يتبادر لأذهاننا ممّا سبق أن مكانة المرأة الليبية كانت منحطة فإن العكس هو الصحيح، فالتقاليد البربرية والأدلة التاريخية تشير إلى أن

10- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St. London, 1914, pp 110111-.
11- Herodotus, The Histories, The Penguin Classics, 1966. iv, p. 300.
12- Mela 1. 8

المرأة كانت تحتل مكانة مرموقة، ويكفي دليلاً على ذلك معرفتنا أن نظام الإرث القائم على جهة الأم كان شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي البدائيين.

وبالنسبة للأعمال التي كانت تمارسها فإنها تمارسها فإنها كانت تكاد تنحصر في إعداد الطعام، وحلب المواشي، وغزل الخيوط اللازمة لإعداد الملابس. ونحن لا نعرف الكثير عن دور المرأة الرئيسي ألا وهو تربية الأطفال والعناية بهم؛ ولكنّا نعرف من هيرودوتس أن النساء كن يقمن بكي الأطفال عند بلوغهم سن الرابعة وذلك باستعمال لفافة من الصوف الملطخ بدهن الخروف، تشعل وتوضع على وسط الرأس أو على عروق الصدغ. وكن يقمن بهذا العمل حماية للأطفال في حياتهم المستقبلة من الأمراض الناجمة عن نزل الرأس وإفرازاته، وكن يقلن إن عملية الكي هذه هي السبب في أن صحة الليبيين أجود من غيرها.

ولابد أن المرأة كانت لها مكانة مرموقة وأنها كانت تتمتع بعدة امتيازات ناجمة عن نظام الإرث القائم على أساس التسلسل من نسل الأم. وممّا يؤيد وجهة النظر هذه أن النساء الليبيات يظهرن بزي الرجال في نقوش سحروع مما يدل على أنهن كن موضع تكريم، فنحن نعرف أن الملكة حتشبسوت كانت، من أجل هذه الغاية ذاتها، تظهر آثار عصرها بزي الرجل.

أما نظام الحكم الذي كان سائداً بين الليبيين القدماء فهو النظام القبلي الذي كانت القبائل بموجبه تخضع لرؤساء تتراوح سلطاتهم بين سلطات شيخ القبيلة العربي وسلطات الأمير العربي على النحو الذي عرف عن قبائل شمال شبه الجزيرة العربية في جاهليتها. وكانت رئاسة القبيلة منصباً وراثياً في الأسرة الحاكمة وإن كان الرجل المؤسس يختار أصلاً لأنه اشتهر بالتزام جانب العدل في حياته وتصرفاته. وتستطيع القبيلة عزل رئيسها أو تنحيته لصالح أحد أقربائه إذا ما ثبت عدم كفايته. وأوضح مثال على هذا هو ما حدث للأمير مريي بن دِد بعد هزيمته. وكان يساعد رئيس القبيلة في بعض الحالات، إن لم يكن دائماً، مجلس للقبيلة يتكون من عشرة أشخاص. ونحن نسمع أن رمسيس الثالث استدعى للمثول بين يديه «عشرات» أسرى أعدائه الليبيين أي أعضاء مجالسهم القبلية. وفي

حالة الأوزيين نلمح مجلساً من نوع مغاير. ذلك أنه كان لهذه القبيلة مجلس يضم جميع الرجال البالغين وينعقد مرة كل ثلاثة أشهر أي مرة كل فصل من فصول السنة[13]. وتدل النقوش المصرية على أن رؤساء القبائل الليبية كانوا من طبقتين: رؤساء كبار ورؤساء آخرون من مرتبة أدنى. وكان الرؤساء من الطبقة الأولى يتحلون بريشتين بينما يتحلى الرؤساء من الطبقة الثانية بريشة واحدة. أمّا واجبات وامتيازات الرئيس الليبي فهي غامضة. وتدل النقوش المصرية على أن الرؤساء الليبيين كانوا قادة في الحروب أو مستشارين للاتحاد القبلي في حالة وجوده. أما في وقت السلم فسلطتهم كانت ضئيلة إلا أنهم على أي حال كانوا يتمتعون بغذاء وكساء أعلى من مستوى غذاء وكساء أفراد القبيلة العاديين. وهكذا فإن الرئيس وحده لقبيلة من الليبيين الفقراء كان يتنعم بحصيرة من الجلد في منزله.

ويخبرنا بروكوبيس أن رؤساء القبائل القديمة في منطقة طرابلس قدموا في مناسبة معينة لمقابلة القائد البيزنطي بليزاريوس وفقاً للتقليد السائد ليثبتوا في مناصبهم وليتسلموا الشارات الرسمية التي كانت عبارة عن:

1- صولجان مطعم بالفضة.
2- قبعة من خيوط فضية ولها عصبة فضية كذلك.
3- عباءة بيضاء تثبت على الكتف بمشبك مذهب.
4- إزار أبيض مزركش.
5- صندل مذهب.

وأقدم من كل هذه الشارات الرياسية استعمال ريشة النعام وجناحي الطائر والرداء الطويل المزركش الذي تجمع شواهد النقوش المصرية على أنّه كان لا يلبسه إلا الأمراء والرؤساء من المرتبة الأولى. وكان الرؤساء يتميزون عن أبناء قبائلهم بالوشم وبلبس ذيل الحيوان كما أن نساء الرؤساء الكبار كن يبجّلن بارتداء زي الرجال.

وكان رئيس القبيلة الليبية يجمع في يديه السلطتين الزمنية والدينية.

13- ذكر هيرودوتس أن هذا المجلس كان يجتمع من أجل إلحاق الأطفال بمن هم أشبه بهم من الرجال انظر Herodotus iv. 303 في الملحق «ب».

وليس لدينا ما يمكننا من معرفة نمط السلوك الذي كان الرؤساء يلتزمونه تمييزاً لأنفسهم عن أتباعهم. ولعل ما ذكره أحد الكتاب الرومان فيما بعد من أن الرؤساء النوميديين لم يكونوا يسمحون لأتباعهم بتقبيلهم لأنهم كانوا يرون في ذلك انتقاصاً من هيبة الحكم يكون ذا دلالة موروثة عن سلوك قديم خاص بالرؤساء.

3- **الاقتصاديات:**

كان سكان المناطق الخصيبة من السواحل الليبية يعيشون عيشة شبه مستقرة؛ ذلك أنهم بسبب سقوط أمطار شبه منتظمة تحولوا تدريجياً من عادة الترحال إلى شبه الاستقرار فصاروا يقيمون في فصل الشتاء الممطر لأداء الأعمال الزراعية وينتقلون في الصيف طلباً للمرعى. وخير مثال على هذا هم الناسامونيون، الذين كانوا يقيمون حول خليج سرت الكبير. فقد كانوا يتركون قطعانهم هناك في الصيف ويذهبون إلى أوجلة لجني التمور. وكان المكاي كذلك يتنقلون بمواشيهم على الشريط الساحلي في الشتاء، فإذا حل الصيف وقلت المياه بالقرب من الشاطئ ابتعدوا عنه إلى الداخل، وربما كانت غايتهم في مثل هذه الحالة هي جبل غريان الخصيب. ولابد أن البسلّي كانوا شبه مستقرين أيضاً فقد وصل إلينا أنهم كانت لهم آبار ماء دائمة.

أما في دواخل البلاد فقد كان طابع حياة البدو الرحل هو الطابع السائد الغالب على حياة سكان هذه المناطق. ونحن نعرف أنه حتى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين في مصر كان الليبيون لا يزالون واقعين تحت سيطرة الميل للهجرة من مكان إلى آخر. وما كان غزوهم لمصر إلا من هذا القبيل. وبعد هذه الفترة بألف سنة أي في أيام هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد توقفت الهجرات وبدأ البدو شبه المستقرين يشغلون المناطق الساحلية بينما بقيت قبائل الدواخل، باستثناء سكان الواحات الذين ربما كانوا قد استقروا منذ وقت مبكر واشتغلوا بالزراعة البدائية في واحاتهم، تعيش عيشة البدو الرحل. وبعد مضي أقل من ألف سنة أُخرى كان سكان السواحل من الليبيين قد استقروا في مدن وقرى في مناطق مارماريكا وبرقة

وحول خليج سرت الكبير. ولكن البدو الرحل في الدواخل بدأوا يهاجمون القرى والمدن الليبية المستقرة كما حدث عندما قام الأوزوريون (Ausurians) (= الأستوريون؟) باجتياح منطقة المدن الخمس قبيل الفتح العربي.

الصيد:

وقد كان الصيد أول عامل من عوامل الاقتصاد الليبي الذي نحن بصدده، ولابد بهذا الخصوص أن نشير إلى ليبيا بأسرها كانت منذ عصر ما قبل التاريخ مليئة بأصناف شتى من الحيوانات والوحوش. وقد وصفها هيرودوتس في وقته «بأنها مليئة بالوحوش» في مناطقها الداخلية الواقعة ما وراء السواحل. وكان من بين الحيوانات والوحوش الي ذكرها هيرودوتس الظباء، والغزلان، والجواميس، والحمير ... التي كانت لا تحتاج إلى الشرب، وبقر الوحش الإفريقي ... الذي كانت الواحدة منه تبلغ حجم الثور، والثعالب، والضباع، والأنياص، والكباش البرية، وبنات آوى، والنمور، وتماسيح البر التي كان طول الواحد منها يصل إلى ثلاثة سواعد وكانت تشبه السحالي في شكلها[14]، والنعام وأفاعٍ صغيرة للواحدة منها قرن صغير.

وكان الليبيون يستفيدون من لحوم ما يؤكل من هذه الحيوانات ومن جلودها التي كانوا يستعملونها في صنع ملابسهم. ونحن ما زلنا نذكر أن الملكة حتشبسوت استولت من التحنو على «عدد من جلود الفهود كان طول الواحد منها خمسة سواعد أربعة». واستعمال الليبيين لريش النعام كحلية شخصية دفعهم إلى اصطياد هذا الطير باستمرار. ولقد سبقت الإشارة إلى استعمال الصيادين لرؤوس الحيوانات وجلودها كأقنعة تمكنهم من خداع الحيوان وتسهل عليهم اصطياده.

استئناس الحيوان:

من الثابت أن الليبيين استأنسوا الحيوانات من وقت مبكر في تاريخهم القديم. وقد سبق أن لاحظنا في الحروب الليبية-المصرية أعداد المواشي التي كان المصريون يستولون عليها من الليبيين منذ عهد سحورع من الأسرة

14- هل لهذا الحيوان علاقة بالورل؟

الخامسة. وكان من بينها البقر ذوات القرون الطويلة والحمير والماعز. ولقد كانت النساء الليبية تعمل ملابسها من جلود الماعز كما أن أثنين من المؤرخين الإغريق هما «بوزانياس Panusanias» و «سينيسيوس Synesius» ذكرا وجود الماعز في برقة. وقد ذكر هيرودوتس وعدد آخر من جمهرة الكتاب الكلاسيكيين أن القبائل البدوية التي كانت تسكن الأقسام الداخلية من ليبيا كانت تربي نوعاً من الثيران تتميز عن غيرها بسيرها إلى الوراء أثناء الرعي، ذلك أنها بسبب قرونها الطويلة الملتوية إلى الأمام باتجاه الأرض كانت لا تستطيع أن تسير إلى الأمام وهي ترعى لأنها لو فعلت لاشتبكت قرونها بالأرض. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن أحداً من الرحالة الحديثين الذين جابوا أرجاء ليبيا والقارة الإفريقية لم يشر إلى وجود مثل هذا النوع من الثيران في أية منهما. وربما كانت المسألة لا تعدو تفسيراً وهمياً لملاحظة عدد من الثيران ذات القرون الطويلة وهي صدفة تسير إلى الوراء أثناء رعيها. وفيما عدا هذه الملاحظة فقد وصف هيرودوتس تلك الثيران بأنها كانت كغيرها من الثيران باستثناء أن جلودها كانت أصلب وأسمك.

أما الضأن فهو، وإن لم يكن قد ورد له ذكر على الآثار المصرية، قد ذكر استرابوا وجوده في الأجزاء الداخلية من البلاد، كما أن هوميروس أشار إلى صلاحية ليبيا لتربية الضأن. ونحن نلاحظ أيضاً أن الضأن كان متوافراً بأعداد كبيرة في ليبيا خلال العهد البيزنطي، وهو قطعاً لم يوجد فجأة في ذلك العهد.

وبالنسبة للحصان فإنه لم يعرف في ليبيا إلا في مرحلة متأخرة بعد أن تم إدخاله إليها من مصر. وأقدم إشارة إلى وجوده في ليبيا وردت في عهد الفرعون مرنبتاح (القرن الثالث عشر قبل الميلاد)، الذي استولى على «الخيل التي كانت تحمل الرئيس الليبي المهزوم». وفي الحرب الثانية بين الليبيين ورمسيس الثالث (القرن الثاني عشر قبل الميلاد) استولى الأخير على (183) حصاناً وحماراً من أيدي الليبيين. ولكن ووجود الحصان لم يعمم في الشمال الإفريقي والأجزاء الساحلية والداخلية من ليبيا إلا في بداية العصر الكلاسيكي وإن كانت فزان قد عرفته على أيدي الجرامنتيين الذين يقدر أنهم

نزلوها في القرن الثامن قبل الميلاد. ويقول استرابو: «إن الملوك [في الأجزاء الداخلية من ليبيا] يعتنون عناية فائقة بتربية الخيول إلى حد أن عدد المِهار التي تنتج لديهم بلغ مائة ألف مهر في السنة». هذا وقد ذكر هيرودوتس خيل قبيلة الاسبستي، كما أن خيل برقة كانت تلقي شهرة فائقة عند الإغريق إلى حد أن عدداً كبيراً من كتابهم وصفوا برقة بأنها منطقة الخيول الممتازة.

وهذه الخيول وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت قوية صلبة، سريعة العدو، وكان ترويضها وتدريبها ممتازاً في أغلب الأحوال إلى درجة لأن الواحد منها كان يتبع صاحبه على نحو ما يفعل الكلب. وكان الفارس يمتطي صهوة جواده دون سرج وحتى دون لجام في أغلب الأحيان ويكتفي لتوجيهه بحمل عصا قصيرة خفيفة لا ليضربه بها بل ليوجهه فقط. ويبدو أن العنان الذي كان شائع الاستعمال كان عبارة عن طوق من الألياف يوضع في عنق الحصان وتتصل به وصلة أُخرى هي الرسن.

وظل الحصان من أكثر الحيوانات أهمية في ليبيا حتى ظهور الجمل، وانتشر استخدامه في المناطق الصحراوية والرملية بشكل خاص فبدأت أهمية الحصان تتضاءل نظراً لقدرة الجمل على تحمل العطش وعلى السير في المناطق الرملية التي تغوص فيها قوائم الحصان مما أعطى الجمل ميزة الصبر على السفر الطويل من ناحية واختصار المسافات الطويلة بالسير في خط مستقيم، عبر الكثبان الرملية التي يحول خفّه دون غوص قوائمه فيها فيها، من الناحية الأخرى. ولقد ظهر الجمل في إفريقيا لأول مرة عهد سيتي الأول بمصر (1328 – 1298 ق. م.) ثم عرف في مارماريكا في القرن الرابع قبل الميلاد وعم استخدامه بين الليبيين في العهد الروماني[15].

15- عاش الجمل في شمال غرب إفريقيا (تونس والجزائر والمغرب) في عصر ما قبل التاريخ كحيوان متوحش، ولكن يبدو أنه انقرض خلال العصر الحجري الحديث أو تراجع إلى أعماق الصحراء. ثم أدخل ثانية إلى المنطقة بعد دخوله إلى مصر مع الفتح الفارسي سنة 525 ق. م. ومن مصر بدأ ينتشر تدريجياً إلى الغرب. وقد استولى يوبيس قيصر بعد معركة ثابسوس سنة 26 ق. م. على أسلاب جيش كبير ولكن لم يكن بينها سوى اثنين وعشرين جملا مما يدل على أن الجمال لم تكن حتى ذلك التاريخ تستخدم على نطاق واسع للنقل ولم تكن كثيرة في البلاد. وبعد ذلك بما يزيد قليلا على أربعة قرون نسمع أن أحد القادة الرومانيين كلف لبدة أن

ومن الحيوانات الأليفة الأخرى الكلب. وقد ورد رسم له على لوح من عهد الأسرة الحادية عشرة في أوائل الدولة الوسطى، وهو رسم يدل على أنه كان من نوع كلاب الصيد.

ويذكر هيرودوتس أن الجيزانتيين (Gyzantes)، سكان فزان، كانوا يربون النحل وينتجون نوعاً من العسل الصناعي.

يتضح مّما تقدم أن سكان الأجزاء الداخلية من ليبيا كانوا يكرسون الكثير من جهودهم للعناية بالمواشي وتربيتها لأنها أساس معيشتهم بينما كان سكان السواحل شبه المستقرين أقل اعتناء بالمواشي نظراً لانشغالهم بفلاحة الأرض خلال قسم من السنة. وعلى أي حال فإن الليبيين بشكل عام كانت عندهم أعداد كافية من الحيوانات الأليفة كما أنهم أظهروا ذكاء واجتهاداً فائقين في تربيتها واستكثارها.

الزراعة:

وفي مجال الزراعة تحول سكان المناطق الخصبة من الأراضي الليبية إلى مزارعين في وقت مبكر من التاريخ الليبي. فقد ذكر هيرودوتس أن منطقة نهر كينبس (Kinyps) (= وادي كعام) كانت خصوبتها في إنتاج الحبوب تعادل خصوبة أية منطقة أُخرى في العالم القديم، كما أن محصولها منها كان يعادل محصول منطقة بابل الخصيبة في جنوب العراق. وكانت منطقة يوسبيريدس (= بنغازي) أيضاً صالحة لزراعة الحبوب. وأقدم إشارة للزراعة الليبية وردت في عهد مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة عندما نسمع أنه في أعقاب انتصاره على الليبيين «خلعت من حقول الرئيس الليبي المهزوم كل النباتات ولم يترك حقل واحد ينمو حتى لا يتمكن أصحابه من الحصول

تحشد له أربعة آلاف جمل (سنة 363 م) وهذا يدل على أن الجمال أصبحت في القرن الميلادي الرابع موجودة بكثرة في الشمال الإفريقي ومستخدمة بانتظام في النقل البري.

انظر أيضاً:

Wulsin, Frederick, R., The Pre-Historic Archaeology of Northwest Africa, Vol. XIX – No. I, Museum of American Archaeology and Ethnology, Harvard University, 1941, P. 108.

على لقمة العيش. كما أم مخازن الرئيس الليبي نهب ما كان فيها من حبوب».

وفي العصر الكلاسيكي كانت منطقة برقة الخصيبة تخضع للإغريق وحدهم أو لهم ولليبيين معاً. بينما كانت منطقة وادي كعام تخضع للفينيقيين. أما بالنسبة لليبيين أنفسهم فقد سبقت الإشارة إلى هجرة الناسامونيين سنوياً إلى أوجلة لجني التمور، كما أن سكان الواحات لابد أن يكونوا قد عرفوا الزراعة منذ عهد استقرارهم في واحاتهم.

وفي شمال فزان كان الجرامنتيون، وفقاً لما ذكره هيرودوتس، يغطون الأرض السبخة بالتراب ويزرعونها. وربما كانت الكرمة تزرع في أنحاء مختلفة من ليبيا منذ وقت مبكر وخاصة في مارماريكا التي اشتهرت برداءة نبيذها.

ونستطيع أن نعتبر اللوتوفاجيين مزارعين، إلى حد ما، لأنهم كانوا يعيشون على ثمار شجرة اللوتس (= النبق أو الزيزفون) (Rhammus Zizyphus). وبالرغم من أنهم لم يكونوا يزرعون تلك الأشجار فإنهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمارها. وقد أكد هيرودوتس أن بعضهم كانوا يعتمدون في معيشتهم على ثمار تلك الأشجار باعتبارها الغذاء الوحيد لهم، وكانوا كذلك يستحضرون منها نوعاً من النبيذ.

وقد أثبتت الآثار أن زراعة الزيتون كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في منطقة طرابلس منذ العهد الفينيقي وكذلك في العهد الروماني الذي وجدت بين آثاره أعداد مختلفة من معاصر زيت الزيتون. ويذكر هيرودوتس أن شجرة الزيتون كانت موجودة في كل الأماكن الصالحة لنموها في منطقة البنطابولس (= شمال برقة).

وكانت هنالك أشجار النخيل التي كان الليبيون يستفيدون من تمورها كغذاء لهم، ويصنعون منها نوعاً من النبيذ كما كانوا يصنعون من لفائفها ما يحتاجونه من حبال.

وكان الليبيون يعيشون على القمح والشعير يأكلون حبوبه كما هي أو

يدقونها ويخبزون معجونها بدفنه في النار. وكان بعضهم يتغذون بجذور النباتات والخضروات والبعض الآخر مثل الجزانتيين كانوا يأكلون لحوم القرود المغربية «Barbary Apes » بينما كان التروجلودايت يأكلون لحم الأفاعي لعدم وجود غيرها عندهم. وكان الليبيون القاطنون حول خليج سرت يلتقطون الأسماك المتخلفة بعد انحسار المد. كما كانت عادة أكل الجراد شائعة فقد اشتهر الناسامونيون بتجفيفه وسحقه ثم خلط مسحوقه مع الحليب وشربه.

كانت حركة النقل منذ أقدم الأزمنة التاريخية تسير شمالاً – جنوباً أكثر منها شرقاً – غرباً في ليبيا. وكانت أشهر تلك الطرق طريق طرابلس – تشاد التي كان يتم بوساطتها تبادل السلع التجارية بين الشمال والجنوب منذ آلاف السنين. وكانت السودان تفضل دائماً طرق القوافل هذه على استخدام الطرق المائية كالنيل والنيجر والسنغال. ولقد كان هدف الفينيقيين القرطاجيين إنشاء المصانع والسيطرة على طرق القوافل هذه عندما أنشأوا محطاتهم التجارية على الساحل الطرابلسي وحول خليج سرت الكبير. ويبدو أن الليبيين كانوا يتاجرون في السلع السودانية والتشادية منذ عهد الملكة حتشبسوت من الأسرة الثامنة عشرة؛ فقد ذكر ضمن الجزية التي حصلتها هذه الملكة من التحنو «العاج وسبعمائة ناب فيل». ونحن نسمع مع حلول العهد الروماني باشتداد أعمال القرصنة ضد القوافل على طرق القوافل البرية في داخل ليبيا مما استدعى قيام الرومان بحملات سريعة مؤقتة لوضع حد لنشاط قطّاع الطرق. ونسمع كذلك أن الناسامونيين المقيمين حول خليج سرت كانوا يقومون بمباغتة المراكب الراسية في ذلك الخليج ثم يحطمونها وينهبونها.

وإذا حاولنا تقدير أهمية التجارة الليبية القديمة من وجهة نظر اقتصادية فلا يسعنا إلا أن نقول إنها كانت تجارة بدائية وإن سلعها كانت سلعاً طبيعية؛ إما كمالية مثل الأبانوس والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات المفترسة وإما خامات مثل الجلود عامة والملح.

أما الواردات فكانت عبارة عن الأسلحة والأدوات المعدنية والأقمشة

والخزفيات والزجاج والحاجيات الأخرى التي كان الليبيون يرغبون في اقتنائها ولكن لا يعرفون كيف يصنعونها.

وقد كان للتجارة الليبية أثران هامان على الليبيين أنفسهم فقد تقدم سكان السواحل منهم أكثر من سكان الدواخل نظراً لاحتكاك سكان السواحل الدائم المباشر مع الأجانب المتقدمين على الليبيين. كما أن طرق القوافل للتجارة مع السودان أدت تدريجياً إلى نشوء المدن التجارية في المواقع المهمة على طرق القوافل من مثل مدينة غدامس ومدينة جرما.

الأزياء والحلي:

كانت الملابس التي استعملها الليبيون حتى العهد الروماني قليلة جداً إلى درجة برّرت وصف الكتّاب القدماء «للجرامنتيين والناسامونيين بالعري». ويقول المؤرخ البيزنطي بروكوبيس إن اللباس الليبي كان عبارة عن إزار خشن لا يغيره صاحبه طوال العام. ويقول هيرودوتس إنه مع أن الأدرماخيدي الليبيين كانوا يشبهون المصريين في طباعهم إلا أنهم كانوا يرتدون الزي الليبي.

وأبسط أنواع الألبسة القبلية، وإن لم تكن أكثرها شيوعاً، تظهر على الآثار المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة. ولعل أحسن تصوير للزي الليبي هو ما يظهر على آثار مدينة هبو بمصر من عهد الأسرة العشرين حيث يظهر قراب العورة الليبي كإزار بسيط مثبت من الأعلى بحزام فوق الخصر ومنسدل إلى ما فوق الركبتين بقليل. وبه في بعض الأحيان فتحة من الأمام.

أما العباءة الطويلة لأول مرّة في عصر الدولة الفرعونية الحديثة فهي وإن لم تكن لباس الأغلبية الليبية إلاّ أنها كانت أكثر شيوعاً من القراب. وتجمع شواهد الآثار على أنها كانت لباساً مميزاً لذوي الجاه والمكانة. وعلى هذا الأساس كان البيزنطيون فيما بعد يقدمون عباءات طويلة للرؤساء الليبيين بمناسبة تثبيتهم في مناصبهم سنوياً. وكانت تلك العباءات تثبت على أحد الكتفين بمشابك ذهبية. ويصفها استرابو[16] بأنها كانت فضفاضة عريضة

16- يقول استرابو إن سكان الشمال الإفريقي عامة كانوا «يرتدون جلود الأسود والنمور

الحواشي. ويبدو أن طريقة تفصيلها نقلت، كما تدل الآثار المصرية، عن الأردية الجلدية التي سبقتها في الاستعمال. وكانت عباءة القماش عبارة عن قطعة مستطيلة، عرضها عند طرفها العلوي أكبر منه عند الطرف السفلي وذلك حتى يمكن لفّها حول الكتفين وتعقد قرنتاها العلويتان المستطيلتان على الصدر. وهنالك نوع آخر معقد من هذه العباءات كان له كم قصير وكان يشبك على كتف واحد فقط. وهو النوع الذي يظهر به أربعة من الليبيين في صور ضريح سيتي الأول. وكانت هذه العباءة مفتوحة من المقدمة من أعلى إلى أسفل ويأتي تحتها حزام قراب العورة. وكانت العباءات تزين في بعض الحالات بأشكال ملونة أو بخياطة قطع عليها من قماش مخالف. ويبدو أن استعمال قراب العورة أًصبح أكثر انتشاراً بين الليبيين المتحضرين فيما بعد. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذه المناسبة هو: من أين كان الليبيون يعتمدون الجلد أكثر من غيره مادة للبسهم من أين كانوا يأتون بالأقمشة الجيدة لعباءاتهم؟ إن الجواب على ذلك السؤال يتلخص في القول إن الليبيين كانوا يأتون بالأقمشة من نفس المصدر الذي كان يستوردون منه أسلحتهم البرونزية أي من الشردن (= السردينيين).

أما كيفية إعداد الملابس الجلدية للاستعمال فكانت في الغالب عبارة عن إحداث فتحة للرأس في وسط الجلد غير المدبوغ وغير المعالج ثم يسدل الجلد متدلياً من العنق حول الجسم. أما الجلد الذي عولج فربما كان يعمل على شكل قميص أو معطف.

وكان استعمال الملابس المذكورة آنفاً شائعاً بين سكان الشمال الإفريقي بشكل عام، ولا نستطيع أن نعتبر أياً منها «الزي المميز للشمال الإفريقي» لأن تلك مرتبة انفرد بها «البنستاشي Penistasche» أو قراب العورة الذي كانت الغاية منه وقاية الأعضاء التناسلية مما قد تتعرض له من أذى. وتظهر أقدم مراحل استعمال هذا القراب في آثار سحورع و «ني – أوسر – رع»

والدببة وينامون بها». ثم يقول :»إن الرداء الليبي هو جلد يكون لصاحبه بمثابة لوح يقي صدره». ويقول ميلا (Mela) إن الليبيين في الدواخل كانوا يلتفون بجلود الحيوانات المفترسة والأليفة بينما كان المكاي يرتدون جلود الماعز. ونحن نعرف أن أفراد الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدون الجلود.

«Ne – User – Ra» من الأسرة الخامسة. ثم يبدو أنه حل محله نوع آخر من الغطاء لأن الكتّاب الإغريق والرومان لم يشيروا إليه علماً بأنهم لو رأوه لأثار اهتمامهم دون شك لما فيه من غرابة بالنسبة لهم. وكان هذا القراب في الغالب يعمل من الجلد أو من الألياف ثم يربط في الحزام ويتدلى منه إلى الأمام ليتمكن الرجل من إدخال عضوه التناسلي فيه.

وكان الليبيون يرتدون أحزمة جلدية مازلنا نجهل كيف كانوا يعقدونها، وإن كان يظهر من النقوش المصرية أن الحزام كان يلف أكثر من مرة حول الخصر ثم تثبت نهايته بوضعها بين الجسم ولفات الحزام وترسل متدلية على الفخذ الأيسر. وربما كان الحزام والقراب في بعض الحالات يكونان قطعة واحدة.

وكان ارتداء القراب شائعاً بين الليبيين عامة سواء في ذلك الرؤساء والرجال العاديون. ومن الجدير بالذكر أن الغلمان الذين تظهر صورهم في نقوش معبد سحورع لا يرتدون هذا القراب مما يرجح الميل للاعتقاد أن ارتداءه لم يكن لوقاية أعضاء التناسل فقط وإنّما كان أيضاً شارة لبلوغ سن الرشد. أمّا المادة التي كان القراب يعمل منها فليست معروفة على وجه التحقيق وأغلب الظن أنه كان يعمل إما من الجلد وإما من الألياف النباتية وهما المادتان اللتان استعملتا لنفس الغاية في كل من مصر القديمة وإفريقيا الجنوبية على الترتيب. وفي بعض الحالات كان القراب يلون بخطوط طولية حمراء وزرقاء وبيضاء.

وفي الحديث عن الأحذية يجدر بنا أن نلاحظ مسبقاً أن ظهور الليبيين على الآثار المصرية حفاة في معظم الحالات، حتى في حالة الرؤساء والأمراء منهم، لا يعني أنهم كانوا حفاة في واقع حياتهم وإنّما قد يعني إما الإهمال من جانب الفنانين المصريين وإمّا المبالغة في إظهار أولئك الرؤساء والأمراء بمظهر الذل والخضوع وإمّا لأن الفنانين اتخذوا ذلك أسلوباً فنياً لطريقتهم في الرسم. وعلى أي حال فهنالك صورة لأحد الليبيين على آثار مدينة هبو يظهر فيها وقد انتعل صندلاً. وتذكر نصوص حرب مريي أن هذا الأمير ترك وراءه، ساعة هربه من ممفيس «صندله ... لأنّه كان مستعجلاً». وقد سبق أن

أشرنا إلى أنّه كان من جملة الهدايا التي كان الرؤساء الليبيون يتلقونها في العهد البيزنطي الصنادل المذهبة. وبالإضافة للصنادل كان الليبيون يلفون سيقانهم برباطات من الجلد أو الصوف.

أمّا لباس الرأس فلم يكن شائعاً بين الليبيين بشكل عام بالرغم من شدة حرارة الشمس في ليبيا. ويظهر بعض الليبيين، خاصة المشواش، على الآثار المصرية وهم يرتدون نوعاً من غطاء الرأس يشبه ما نعرفه اليوم باسم الكوفية. وكانوا يثبتونه على رؤوسهم بالعصبة بدلاً من العقال عند العرب. ولم تكن القبعة التي تغطي قحف الرأس مجهولة عندهم. ويثبت معرفتهم لها صورة المرأة الليبية التي تظهر على آثار مدينة هبو وصور الليبيين المرسومين على آثار تحتمس الرابع.

وكان لباس المرأة الليبية يعادل لباس الرجل الليبي في خشونته إن لم يكن أخشن منه. ويقول هيرودوتس بعد أن يعرب عن اعتقاده أن زي الإلهة الإغريقية أثينا كان مقتبساً عن الزي الليبي للمرأة: «لأننا إذا استثنينا حقيقة أن لباس المرأة الليبية من الجلد وأن حاشيته مزينة بالعقد الجلدية بدلاً من الأفاعي، فإن الزيين يتشابهان تماماً في كل شيء آخر... لأن المرأة الليبية ترتدي فوق ملابسها (التي ربما كانت من القماش) جلد الماعز الذي جرد من شعره وعملت له حواشٍ وصبغ بالزُّنْجُفْر أو الصباغ القرمزي». وتدل الآثار والمنحوتات المصرية من العهد الروماني على أن الليبيات كن يرتدين جنلّة بسيطة تنضم على الخصر ثم ترسل على شكل ثنيات بسيطة حتى القدمين.

وإذا تذكرنا أن تجميل الإنسان لشخصه هو عملية تسبق حضارياً عملية تجميله لملابسه فلن يدهشنا أن نجد أنه بينما كانت ملابس الليبيين لا تزال بسيطة كانوا قد طوروا عدداً من الحلي كالأطواق وحلق الأذنين وأساور الذراع.

ولعل أشهر الحلي الليبية كانت ريش النعام فنحن نجد أن المحاربين الليبيين عامة كانوا يزينون به رؤوسهم كما هو ظاهر في النقوش المصرية. ويمكن

تعليل عدم ظهور الريشة في بعض النقوش بواحد من الأسباب التالية:

1- ضحّى بها الفنان توفيراً للسطح الذي يرسم عليه.

2- استحال رسمها على الفنان نتيجة لصعوبات فنية روتينية متكررة.

3- كون الصورة تخص رجلاً ليبياً عادياً لا يحق له لبس الريشة.

وفيما عدا السببين الأول والثاني فإن الرئيس الليبي لا يظهر على الآثار المصرية دون ريشة من عهد الدولة الوسطى فصاعداً. وهو قد يظهر بريشة واحدة حتى ولو كان من مرتبة عالية كمرتبة الأمير مريي مثلاً الذي قالت عنه نقوش مرنبتاح «إن الحظ السيئ ضيع ريشته». وقد تميز وجهاء الدلتا من الليبيين في أواخر عهد الدولة الحديثة باستعمال ريشة واحدة. وفي واحة سيوة نجد نقشاً لأمير ليبي يمثله وهو يركع أمام الإله آمون ويجمل رأسه بريشة واحدة. ومن الناحية الأخرى فنحن نجد استعمال الريشتين يدل على أن صاحبهما يحتل مركزاً أعلى من مركز الرؤساء بريشة واحدة. أمّا كيف كانت تلك الريشة أو الريشتان تثبت فهي مسألة غير معروفة بالتأكيد وإن كان من المحتمل أنهم كانوا يغرسون الريشة في أصل إحدى خصل الشعر الجانبية.

وكما هو الحال مع معظم الناس البدائيين فإن الليبيين قد عرفوا أنواعاً عديدة من حلي الأذنين التي كانت تثبت إما بالحلق أو بالأزرار. وكانت هذه الحلي تلبس دائماً في شحمة الأذن وليس في طرفها العلوي كما هي الحالة في النوبة مثلاً في الوقت الحاضر.

وتظهر على نقوش معبد سحورع من الأسرة الخامسة صور ليبيات وليبيين يتحلون بعقود من الخرز المنبسط والمدور. وعلى آثار مدينة هبو يظهر فيها ليبيان يتحليان بالعقود التي يتدلى منها الخرز.

أمّا الأساور فيبدو أنها لم تكن شائعة كثيراً بين الليبيين ولكنها كانت معروفة إذ إنها تظهر على أذرع الليبيين ومعاصمهم في نقوش أبي صير ومدينة هبو.

وكان الأمراء الليبيون يتحلون بحلية أُخرى غريبة عرفت عند الملوك المصريين كحلية تدل على علو المكانة وهي ذيل الحيوان. فقد كان الليبيون يرتدونها متدلية من مؤخرة الحزام. ولعلها حلية موروثة عن عادة قديمة ترجع للوقت الذي كان فيه الصيادون يلبسون جلد الحيوان الذي يقتلونه. وكان الذيل الليبي ينتهي بطرف مزين يشكل تحت الحزام.

أما الخلاخيل فقد وردت في نقوش تحتمس الرابع حيث يظهر أحد الريبو أنها أصبحت بشكل عام سمة مميزة لليبيين لدى كل المعنيين بدراسة النقوش المصرية. وتظهر في النقوش أشكال متعددة من هذه التسريحة. فالخصلة قد ترسل خلف الأذن أو أمامها. وقد تكون عبارة عن خصلة ملوية أو مجدولة من عدة مسائح أو ذؤابات وبطرق متنوعة مختلفة. ويبدو أن الطراز الغالب كان إطلاق خصلة واحدة على الجانب الأيمن أو الأيسر من الرأس ثم تقصير الشعر على الجانب المقابل حتى يكون بمستوى الصدغ. وبعد هذا ليس غريباً أن نجد اللغة المصرية الهيروغليفية تعبر عن كلمة «الغرب» أي ليبيا بما يشبه أن يكون قبعة ذات ريشة يتدلى من جانبها خطان يرمزان للخصلتين الجانبيتين.

وأخيراً تجب الإشارة إلى تسريحة ليبية نادرة تظهر في صور الدهان على آثار بني حسن ويبدو الشعر فيها وقد جمع بنوع من العصبات المزينة بما يشبه الأصداف ثم يرسل من العصبة ليكوّن ما يشبه الفرشاة خلف الرقبة.

وسبب تنوع التسريحات عند الليبيين غير معروف. وإن كان هيرودوتس قد أشار إلى أن التسريحة ربما تستخدم كعلامة فارقة تتميز بها بنات وأبناء القبيلة الواحدة من غيرهم. وربما كانت هنالك أسباب أُخرى لاعتماد التسريحة ذات الخصلة الجانبية الواحدة أو الخصلتين الجانبيتين كأن تكون مثلاً علامة مميزة للشباب. ولما كنا نعرف أن الرؤساء فقط هم الذين كانوا يستعملون التسريحة ذات الخصلة الجانبية المزدوجة فإنا لن نخطئ إذا قلنا إن هذه التسريحة قصدوا بها أن تكون شارة لمركزهم الرئاسي.

والرجال الليبيــون يظهرون على الآثار المصرية ملتحين في أغلب الأحيان، ولحاهم ليسـت طويلة بل هي مهذبة بعنايـة فائقة. ومن ناحية أُخرى كانوا يطلقون شواربهم خفيفة كذلك.

أما بالنسـبة للوشـم عند الليبيين القدماء فإن أحسن شاهد عليه هو صور الرؤسـاء الليبيين المرسومة بالدهان في تل العمارنة على ضريح سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة، وبلاط هبو الأملس. ويدل رسم الأمير الليبي الموجـود في تـل العمارنة على أنه كان رئيسـاً كبيراً لأنه يتحلى بريشـتين. ونلاحظ على الكتف الأيمن لهذا الرئيس رسـماً من طراز بسيط هو عبارة عن خط مزدوج موج تليه أربع نقط. وعلى صدره وبطنه سـتة معينات في صف عمـودي، تليها أدنـى منها أربعة أُخرى. وهذا الوشـم يختلف قليلاً عما كان مألوفـاً عند الليبيين عامـة. ولقد دل فحص صور الرؤسـاء التمحو الأربعة، الموجودة على ضريح سـيتي الأول، على وجود علامات سـوداء على أذرعهم وسيقانهم.

ويرجـع أوريـك بيتس[17] أن الرؤسـاء مـن الليبيين هم فقـط الذين كانوا يسـتعملون الوشـم وأن رجال الأسـر الحاكمة دون نسـائها هم الذين كانوا يسـتعملونه، ثم يشير إلى أن استعمال الوشـم عند الليبيين القدماء كان مناظـراً لما ذكره هيرودوتـس عن بعض القبائل التراكيـة (Tracians) التي كانت تسـتخدم الوشم كعلامة ميزة تشهد أن صاحبها ولد من أصل نبيل، كما أن عدم وجود الوشم كان دليلاً على انحطاط الأصل[18].

أما أنماط الوشـم التي اسـتخدمها الليبيون فقد كانـت أنماطاً محلية بسـيطة وربمـا كانت في أغلـب الأحيان من صنـع خيال الفنانـين المصريين أنفسـهم. ولذلـك فإن من الخطأ نسـبتها إلـى مؤثرات خارجـة عن المحيط الإفريقـي والأصول الإفريقية. وأهم هذه الأنماط نمـط اعتبر أن له دلالة دينية لأنـه يتعلق بالإلهة نيـث «Neith» إلهـة الجلتا (ليبيـة – مصرية)، ولأنه

17- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, P. 138.
18- Herodotus V, P. 312.

يعطينا أيضاً تفسيراً لاستخدام الليبيين للوشم.

وليـس هنالك ما يثبت أن الوشـم هذا كان عبارة عن وسـم يوسـم به الأسـرى الذين وهبوا رقيقاً للربة نيث. ومع ذلك فإن هذا لا يستبعد إمكانية كون الوشم على الأسرى الليبيين رمزاً لهذه الإلهة.

وعلى ذلك فقد كان الوشم عند الليبيين في البداية علامة ميزة للرؤساء الكبار، ثم صار شـيوع اسـتعماله بين الرؤسـاء علامة تدل على أنهم كانوا بذلك يضعون أنفسهم تحت حماية الإلهة نيث.

أمـا الأنمـاط الأخرى من الوشـم فهي بسـيطة للغاية ويمكـن ردها إلى العصـر الحجري الحديث. وربما كان الوشـم بأنماطه المختلفـة مجرد دهان على الجسـم من ناحية، وربما كان، مـن الناحية الأخرى، ووشـماً حقيقياً ناجماً عن حقن المادة السـوداء تحت الجلد، إذ من المعروف أن الجيزانتيين والماكسـاي كانوا يطلون أجسامهم بالدهان الأحمر.

وأخيـراً تـدل الآثار المصرية على أنـه بالرغم من أن الشـردن وغيرهم من حلفاء الليبيين كانوا يمارسون عادة الختان، إلا أن الليبيين أنفسهم لم يكونوا يختتنون. وقد أكد هيرودوتس فيما بعد هذه المسألة وعزا أصولها للمصريين الذيـن قال عنهـم كانوا يفضلون الطهـارة بالرغم مما يترتـب على الاختتان من تشـويه. وعندما يعد هيرودوتس الشـعوب التي تمارس عـادة الاختتان، لا يذكر الليبيين بينهما. وهو يقول في هذا الصدد بحق إن هذه العادة مصرية، وإنهـا كانت معروفة فـي مصر وإثيوبيا[19] منذ وقت قـديم جداً. ومن الواضح أن هيرودوتـس هنا لا يخلط بين الإثيوبيين والليبيين كما هي الحال بالنسـبة للكتّاب الإغريق وبالنسبة له هو ذاته في موضعين من كتابه؛ ذلك أن شواهد آثار الأسـرتين التاسـعة عشرة والعشـرين، ولوح بعنخي تثبت ما ذهب إليه فيمـا يتعلق بأُصول عادة الختان؛ فنحن نعلم أن بعنخي، في أعقاب إخضاعه للدلتـا ومن فيها من الأسـر الليبية، منع الليبيين مـن الدخول عليه لأنهم كانوا يأكلون السـمك – وهو محرم عند الإثيوبيين – ولأنهـم، كما يظهر،

19- Herodotus, II, p. 140.

كانوا غير مختتنين. والشخص الليبي الوحيد الذي سمح له بالدخول هو نملوت (= نمرود)، وكان ذلك إما تقديراً لمركزه كأعلى رئيس ليبي، وإما لأنه كان قد «حمل على الاختتان» وفقاً للعادة المصرية.

الفن والمادة: استعمال المعادن:

أجمع عدد كبير من المؤرخين في صمت على أن الليبيين في عصر الغزوات الليبية الكبرى لمصر كانوا في مرحلى حضارية متقدمة إلى حد كبير، لأنهم كانوا يستعملون الأسلحة والأواني المعدنية؛ وهذه قضية خطيرة جديرة بالبحث الواعي العميق لأنها ذات أثر كبير على الحضارة الليبية القديمة وذات دلالة تاريخية عميقة.

ومما لا شك فيه أن الليبيين القدماء كانوا يستعملون المعادن إلى حد ما. وقد سبق أن لاحظنا في قائمة الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمير الليبي مريي «ذهبه وفضته وأوانيه البرونزية» وأكثر من تسعة آلاف «من سيوف المشواش البرونزية» ثم «أواني الشرب الفضية» و«السكاكين». وكان من جملة الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث من الليبيين (115) سيفاً بطول خمسة سواعد و(124) سيفاً بطول ثلاثة سواعد.

ويؤكد هذه المعلومات ما نجده من تمثيل للأوعية الليبية في النقوش المصرية وما ذكره الكتاب الكلاسيكيون عن السيوف الليبية.

ولكنا نخطئ إن خرجنا من هذه المعلومات إلى القول إن الليبيين جميعاً كانوا يعيشون في «عصر المعادن الشامل» لأنهم في الواقع إنّما كانوا صدفة يستعملون المعادن؛ فقد كانت المعادن المفيدة في الماضي كما هي الحالة اليوم تأتي لليبيين من الخارج. وتدل أشكال الزّهريات المعدنية الخاصة بالأمراء الليبيين على أنها من أُصول أجنبية. أما السيوف الطويلة فقد كانت من النوع المتداول في جنوب أوروبا وبين الشردن بالذات. ونحن نعلم أن هؤلاء كانوا حلفاء لأبناء الشمال الإفريقي الليبيين. والحقيقة المعروفة عن قلة المعادن المحلية وندرتها في الشمال الإفريقي من تونس إلى مصر في العصور التاريخية القديمة هي في حد ذاتها كافية للتشكيك فيما إذا كان

الليبيون أنفسهم قد عرفوا فن صناعة المعادن. وإذا استثنينا خام الحديد الممتاز «الهيماتيت»[20] الأحمر اللون في مارماريكا، وعروق النحاس الأحمر في جبل العقبة فإنه لم توجد في ليبيا القديمة أية معادن أُخرى قابلة للتصنيع. صحيح أنه كان هنالك بعض الرواسب الحديدية على حدود ليبيا الغربية، وكميات صغيرة من رواسب النحاس الأحمر في المنحدرات الشرقية لجبال أطلس ولكن ليس هنالك ما يدل على أنها اكتشفت قبل العصر الروماني، وحتى في أيامنا هذه فإن ليبيا تعتمد كلية على العالم الخارجي للحصول على حاجتها من المعادن.

ولابد من القول بهذا الصدد إن تمحيص الكتابات الكلاسيكية ذات العلاقة بالأسلحة الليبية أمرٌ له مغزى كبير بالنسبة لهذا الموضوع لأن شعباً محباً للقتال مثل الليبيين يزود بكميات كبيرة من أدوات النحاس الأحمر والبرونز والحديد لابد أنه كان بالتأكيد يزود بالأسلحة المعدنية ولكن الحالة لم تكن كذلك في العهدين الإغريقي والروماني. وصحيح أن كلاًّ من «هلاّنيكوس Hellanicus» نيوكولاس «Nicolaus» الدمشقيين تحدث عن السيوف الليبية ولكنهما كانا يعنيان الليبيين الغربيين الذين كانوا قد تأثروا بالفينيقيين في قرطاجنة وليس الليبيين الشرقيين (سكان ليبيا بحدودها الحالية) الذين قال عنهم ديودورس الصقلي (Deodorus Siculus) إن الواحد منهم كان يتسلح بثلاثة رماح وحقيبة حجارة وكانوا يجهلون السيوف والخوذات والأسلحة الأخرى. واستكمالاً لهذه الصورة التي رسمها ديودورس تضيف هنا أنهم كانوا أيضاً يتسلحون بالقوس والنشاب. وصحيح كذلك أن الأوزيين كانوا في احتفالاتهم الدينية يجعلون إحدى عذراواتهم تلبس «الخوذة الكورنثية والدرع الإغريقي»[21]. ولكن هذه الأشياء كانت مستوردة؛ يدل على ذلك أن هيرودوتس نفسه لا يلبث أن يعلن أنه لم يكن يعرف «كيف كان هؤلاء القوم يلبسون مثل تلك العذراء قبل استيطان الإغريق في المناطق المجاورة»، ويفترض أنهم ربما كانوا يستعملون أسلحة مصرية، ثم يؤكد أن

20- الهيماتيت (Haematite) هو أكسيد الحديديك (ح2أ3) ولونه أحمر بني ويحتوي 57% من الحديد.

21- Herodotus, iv, p. 302.

الإغريق أنفسهم إنما أخذوا الدرقة والخوذة عن المصريين[22]. وجدير بالذكر في هذا الخصوص أن الأوزيين أنفسهم كانوا يستعملون النبابيت والحجارة في القتال الذي كان يشكل جزءاً من احتفالاتهم الدينية. ونحن نعلم أن الليبيين أجهزوا على من كان متأخراً من الفرس من جند أرياندس «Aryandes» من أجل ملابسهم وأسلحتهم أثناء تقهقر الجيش الفارسي من منطقة برقة، كما نعلم أن الفرق الليبية في جيش كزركسيس بمصر كانت مسلحة برماح صليت رؤوسها الخشبية على النار لتكتسب شيئاً من الصلابة. أما الحراب ذات الأسل التي ذكر الشاعر الإيطالي «Silius Italicus» أنها كانت سلاحاً ليبياً فليس من الضروري أنها كانت ذات رؤوس معدنية لأن الشاعر نفسه يشير في مكان آخر إلى جماعة أُخرى من الليبيين كانت مسلحة بالحراب ذاتها ومع ذلك فهو يصفها بأنها كان ينقصها الحديد.

وقد ذكر كوريبوس «Corippus» أن أسلحة الليبيين في أوائل العهد البيزنطي كانت في بعض الحالات – بل ربما في أكثرها – من المعدن. وتجدر الإشارة إلى أن الأدلة المتعلقة بالأسلحة لا تشير فقط إلى ندرة المعادن وإنما تذكر أيضاً أن الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية الواردة في النصوص المصرية لا ذكر لها عند كتاب العصر الكلاسيكي فهم لا يذكرون إلا الكؤوس والأواني الخزفية أو الخشبية أو المصنوعة من لحاء الشجر[23]. ومن ناحية ثانية فنحن في الوقت الذي نجد فيه نساء قبيلة الأدرماخيدي المتأثرة بالحضارة المصرية يحلين سيقانهن بخلاخيل برونزية، نجد أخواتهن نساء الأوزيين البعيدين عن مصر وتأثيرها يقنعن بالخلاخيل الجلدية[24].

ممّا تقدم يتبين لنا أن المعدن كان شيئاً نادراً ولكن الرؤساء الكبار كانت لديهم كميات كبيرة منه، كما أن المحاربين الليبيين الذين كانوا على احتكاك بالمصريين في الشرق أو بالقرطاجيين في الغرب كانوا يتمكنون من الحصول عليه. أما أغلبية رجال القبائل فلم يكن لديهم منه ما يكفي لأن يستعملونه

22- المرجع السابق، نفس الصفحة.

23- Mela, 1. 8.

24- Herodotus, iv, pp 299 – 301.

رؤوساً لأسلحتهم أو ليصنعوا منه سيوفهم. والواقع أن الليبيين يظهرون في العصر التاريخي، وقد تعدوا فقط مرحلة حضارة العصر الحجري الحديث، كحلفاء لمستعملي المعادن من أمثال الشردن والقرطاجيين. وهذه نقطة هامة لأن جزيرة سردينيا التي كانت إلى حد ما خاضعة لسيطرة الشردن كانت غنية بالمعادن. وقد سبق أن قلنا إن سيوف رجال القبائل الليبية الطويلة كانت من النوع المعروف في جنوب أوروبا. وتظهر رسوم هذه السيوف على الآثار المصرية من عهد الدولة الحديثة بمصر كأسلحة مميزة للشردن والشكلش العاملين كمرتزقة في الجيش المصري. وبناء على هذا يمكننا أن نستنتج باطمئنان أن الشردن، جوالة البحر، المتحالفين مع الليبيين ضد مصر، هم الذين سلحوا حلفاءهم بالأسلحة المعدنية. ولهذه القضية دلالة بالغة على مدى توثق العلاقات بين الشماليين (أبناء جنوب أوروبا) والإفريقيين (سكان شمال إفريقيا) وعلى طبيعة الغزوات التي قامت بها أحلافهم ضد مصر.

الأسلحة والحروب:

لم يأنف الليبيون من استعمال أبسط الأسلحة كأسلحة هجومية، فقد سبقت الإشارة لاستعمالهم للنبانيت والحجارة التي كانوا يقذفونها بقوة إما باليد أو بالمقلاع. أما عصيهم فكانت إما مستقيمة أو منحنية بعض الشيء عند نهايتها. وإذا قصدوا بها أن تقذف فإنهم كانوا يحنونها على شكل الترمباش «Turumbash» السوداني الحالي.

وقد استعمل الليبيون بشكل عام أسلحة بدائية للغاية. أما سلاحهم الممتاز فقد كان دون شك القوس والسهام والرمح القصير. ونحن نراهم في مناظر المعارك الكبرى على آثار الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين مسلحين بالأقواس. وتقول نصوص مرنبتاح عن الأمير الليبي مريي إنه هاجم التمحو بنبالته وإنه أثناء انهزامه فيما بعد خلف وراءه قوسه وسهامه وحقيبته. وكان ضمن الغنائم التي استولى عليها مرنبتاح أكثر من ألفي قوس بينما استولى رمسيس الثالث على عدد من الأقواس وعلى (2310) جعب. وتظهر الأقواس الليبية صغيرة جداً – كما هي الحال في بعض الأحيان بالنسبة

للأقواس المصرية – إلى حد أنها جعلنا نميل للاعتقاد أنها كانت تستعمل لقذف السهام الصغيرة السامة. ويدل شكلها أيضاً على أنها أشبه بالأقواس الآسيوية المنقوشة على الآثار المصرية منها بالأقواس الإفريقية الحديثة. وكان القوس الليبي المألوف أشبه بضلعي زاوية منفرجة بمقدار (140) درجة. أما أقواس الرؤساء فكانت في بعض الحالات معقوفة الطرفين. وفي حالة واحدة يظهر القوس صغيراً للغاية إلى حد يحملنا على وجوب اعتباره إما نموذجاً لقوس وإما أن يكون الفنان قد صغره لأسباب تقليدية كالحاجة لتوفير الفراغ مثلاً.

أما رؤوس السهام الليبية فكانت من أشكال مختلفة. وقد وجدت أعداد كبيرة منها. وهي من الصوان أو العقيق الأحمر أو حجارة أخرى. في الصحراء وفي الواحات المصرية وفي الفيوم مما يرجح الاعتقاد أن هذه الرؤوس هي التي كانت مستعملة بصفة عامة. ومن الناحية الأخرى فإن الرؤوس المحسنة التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث. والتي كانت شائعة الاستعمال في مصر حتى قبيل عصر الأسرات. يرجح أنها كانت مستعملة من قبل الليبيين الأقل تقدماً خلال عصرهم التاريخي. ونحن نجد نظيراً لهذه الرؤوس بين رؤوس السهام الإثيوبية. فقد كان الإثيوبيون حتى القرن الخامس قبل الميلاد – عندما كانوا يعملون في جيش كزركسيس الفارسي بمصر – يستعملون سهاماً «ليست لها رؤوس من حديد وإنما من حجر محدد إلى درجة عالية. كالنوع الذي كان يستخدم في حفر الأختام»[25]. ويمكن التأكيد أن الرؤوس الصوانية التي وجدت في الفيوم هي رؤوس سهام ليبية من العصر الحجري الحديث وذلك بسبب التوزيع الجغرافي الواسع لعدة أنواع منها ولوجودها في أماكن صالحة للسكن ولعدم وجودها في وادي النيل.

أما الرماح التي كان يتميز بها الليبيون. على الأقل بعد ظهور الحصان. فيبدو أنها لم تكن شائعة في وقت الغزوات الليبية لمصر. ففي قائمة الأسلحة الليبية التي غنمها رمسيس الثالث ذكرت اثنتان وتسعون حربة فقط. ومع بدء العصر الكلاسيكي عم استعمال السهام والرماح

25- Herodotus VII. P, 440.

الصغيرة والحراب في الشمال الإفريقي. وهذه الأسلحة كانت رؤوسها مثل رؤوس السهام الليبية. وإذا لاحظنا أشكال المجموعة الثانية من هذه الرؤوس سنجد بينها أمثلة متنوعة من رؤوس الحراب الصغيرة والكبيرة وقد وجدت جميعها في منطقة الفيوم. ولقد سبق أن ذكرنا أن رؤوس الحراب كانت في بعض الحالات تمتّن بصليها على النار. وتدل الكتابات الكلاسيكية على أن الرماح الليبية كانت تستخدم غالباً للقذف وليس للطعن. وكانت العادة أن يحمل المحارب رمحين أو ثلاثة من أجل هذه الغاية.

وبالإضافة لكل الأسلحة التي سبق ذكرها استعملوا السيف على نطاق محدود في الأوقات التي تحالفوا فيها مع أقوام أكثر منهم تقدماً. ونحن نعلم أن المصريين غنموا (9111) سيفاً برونزياً من المشواش. كما سبق أن ذكرنا السيوف الليبية من طول خمسة (263 سم) وثلاثة سواعد (159 سم) ضمن الغنائم التي استولى عليها رمسيس الثالث.

هذه السيوف الضخمة كانت. كما سبق أن ذكر. من صنع أجنبي. وقد ذكر سيليوس الإيطالي نوعاً آخر من السيوف قال إن الأدرماخيدي استعملوه. ويتضمن وصف سيليوس لهذا النوع أنه كان محنياً كالمنجل وبذلك فهو يشبه النوع الذي استعمله المصريون القدماء والذي ترجع أصوله إلى العصر الحجري الحديث.

وفي العصر الكلاسيكي استعمل الليبيون المتصلون بعالم البحر الأبيض المتوسط. في بعض الحالات. نوعاً قصيراً من السيوف المنحنية القاطعة هو المشيرا «Machaera» بينما استعملوا في العصر البيزنطي سيوفاً قصيرة مستقيمة هي في الواقع عبارة عن سكاكين طويلة. ولابد من التمييز بين هذه السيوف القصيرة والسيوف التي غنمها مرنبتاح من الليبيين؛ فقد كانت الأولى عبارة عن خناجر كالتي تظهر في أيدي الليبيين منذ عهد ني – أوسر – رع وخلال عهد الدولة الحديثة في مصر. والواقع أنه من الصعب أن نميز بين هذه الخناجر والأسلحة المصرية فهي في الحقيقة من النوع الذي كان شائعاً في بلدان البحر الأبيض المتوسط. ونحن نعرف أنها

كانت لها أغماد من شكل نصابها. ونعرف كذلك من شكل النصاب أنها إنما كانت تستعمل للطعن. وفي إحدى صور الدهان على آثار بني حسن يظهر احد المرتزقة الليبيين وهو يحمل فأساً هلالية الحد. وذلك هو الشكل الذي كان شائعاً في مصر. ومن المحتمل أن يكون حاملها قد سلحه بها مستخدِموه المصريون. ويذكر بهذا الصدد أن سيليوس الإيطالي أشار مرتين لوجود ليبيين في الجيش القرطاجي مسلحين بالفؤوس، وإن كانت الفؤوس المقصودة في هذه الحالة هي فؤوس من النوع المزدوج أي ذي الحدين.

وفي الحديث عن أنواع الأسلحة تجدر الإشارة إلى أن الشعب المتأخر حضارياً يغلب على أسلحته أن تكون هجومية أكثر منها دفاعية لأن المبدأ ينطبق تماماً على حالة سكان الشمال الإفريقي القدماء. ولكن ذلك لا يعني أن أياً من شعوب هذه المنطقة كان مجرداً تماماً من وسائل الدفاع والوقاية كما ذكر هيرودوتس عن الجمفزانيتين؛ فالمعاطف الجلدية السميكة تعتبر وسيلة وقاية وقد كانت شائعة بشكل عام إلى حد أن جنود المراتب الدنيا من المرتزقة الليبيين في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانوا يرتدونها. وفي العصر الكلاسيكي نجد التروس الجلدية مستعملة بانتظام. وكان النوع الشائع منها هو الشكل الكبير الذي كان مدوراً ومحدباً إلى حد ما. وقد ذكر هيرودوتس أن المكاي كانوا يستعملون ترساً صغيراً مدوراً يصنعونه من جلد النعام[26]. ويخبرنا سيليوس الايطالي أن الليبيين كانوا يطلون تروسهم بالدهان.

ولا يبدو أن الدرقات والدروع كانت مستعملة على نطاق واسع وإن كان الكتّاب الرومان قد أشاروا لها بين الحين والآخر في معرض وصفهم للرؤساء الليبيين. وبالعكس فإن ديودورس الصقلي ذكر بصراحة أنها لم تكن مستعملة على الاطلاق[27].

وحينما نبدأ بالحديث عن المعدات فلا بد أن نعيد للذاكرة ما سبق أن

26- Herodotus, iv, p. 301.

27- عاش ديودورس في القرن الميلادي الأول Diodorus Siculus, iii, 49. 4. وألف تاريخه المذكور (Bibliotheque Historique)

أشرنا إليه من أن الليبيين كانوا يستعملون جعب السهام منذ وقت غزواتهم لمصر. كما أنهم كانوا يستعملون نوعاً من الحقائب الجلدية فيه رماة الحجارة حجارتهم. ولعل أهم المعدات الليبية القديمة هي قربة الماء التي كان يستحيل عليهم عبور الصحراء دونها؛ وقد ورد ذكرها لأول مرة على آثار الدولة الحديثة في مصر. وفي هذا العصر وفي العصر الكلاسيكي من بعده كانت القرب تحمل بربطها تحت بطون الخيل حتى لا يتبخر الماء منها. وهذه عادة لا تزال دارجة حتى اليوم.

ومن المعدات الأخرى العربات الحربية؛ فقد كان بين ما استولى عليه رمسيس الثالث من الليبيين حوالي مائة عربة حربية. ويقول هيرودوتس إن الإغريق عرفوا العربة ذات الخيول الأربعة عن طريق الليبيين[28]. ولكن هذا القول، إن صح، لا ينفي أن يكون الليبيون قد أخذوا استعمال هذه العربات الحربية عن المصريين. وعلى أي حال فإن نوعاً من العربات ذات العجلات كان قد عم انتشاره في الشمال الإفريقي مع بدء العصر الكلاسيكي. وفي ليبيا عرفها الاسبستي على الساحل وعرفها الجرامنتيون في الداخل[29]. كما أن الفرقة الليبية في جيش كزركسيس الفارسي بمصر كانت تمتطي هذه العربات. ومن المعروف بهذا الخصوص أن كل قوم من الأقوام المختلفة في الجيش الفارسي إنما كانوا يحاربون بأسلحتهم الوطنية. وقد اشتهرت قورينة بالعربات والسباق الخاص بها. ولكن شأن العربة لم يلبث أن انحط في العصر الروماني. ولا شك أن العربة الليبية كانت من النوع البسيط كما أنها كانت تصنع محلياً، وهي قطعاً لم تكن من النوع الفاخر المصنوع من الخشب والبرونز. وهو النوع الذي كان شائعاً في مصر وآسيا وبلاد اليونان. وفي حديثنا عن المعدات عامة والعربات خاصة يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه سابقاً عن الخيل الليبية التي تظهر لأول مرة في فترة الغزوات الليبية الكبرى لمصر.

28- Herodotus IV, 305. The four horse chariot is at least as early as the Homeric poems – Iliad viii 185, Odyss xiii. 81 – and appeared in the Olympic contests in the Seventh century B.C.

29- هنالك نموذج للعربة الجرامنتية تمكن مشاهدته في متحف السراي الحمراء بطرابلس.

وفيما يتعلق بأساليب القتال نجد الليبيين في فترة الغزوات الكبرى لمصر يتبعون تكتيكاً يختلف عن التكتيك الذي صاروا يتبعونه في عصر لاحق بعدما أصبح أكثرهم يقاتلون من على ظهور الخيل. فعلى سبيل المثال نحن نعلم أن المشواش عندما أخضعوا التحنو، المجاورين لهم من جهة الشرق، أجبروهم على الانضمام إليهم في غزوتهم لمصر. وكان أميرهم مريي قد حالف أعداداً من الشردن والشكلش والإكوش واللوكا والتراكيين «منتخباً لهذه الغزوة أحسن المحاربين وأشجع الرجال في بلاده». ولما تم له ما أراد زحف بذلك الجيش على مصر وراح في طريقه على المراكز المصرية المتقدمة حتى بلغ وادي النيل حيث دنا من ميدان المعركة الذي كانت تحتشد فيه قوات الفرعون مرنبتاح. وقبل فجر اليوم السابق ليوم المعركة، قام الرئيس الكبير بنفسه بجولة بين خيام جنده الجلدية يشجع جنوده ويحثهم على الاستبسال في القتال. وفي صبيحة يوم المعركة كانت مقدمة الجيش الليبي تقف ضد المصريين وجهاً لوجه. وبدأت بين الفريقين معركة رهيبة دارت رحاها طيلة ست ساعات كان المصريون خلالها يطلقون رفوفاً من السهام على صفوف الجيش الليبي برهنت على صلابتها رغم قلة تنظيمها. وأسفرت المعركة في النهاية عن اندحار المغيرين ثم انهزامهم مخلفين وراءهم أقواسهم وقربهم وأكثر من تسعة آلاف قتيل ومثلهم من الأسرى.

أما العصر الكلاسيكي فقد تغير تكتيك القتال الليبي وتطور، إذ نحن نجد المعارك الليبية تختلف كثيراً في أساليبها عن المعارك والحملات الأولى في عهد الغزوات الكبرى المذكورة، تلك الغزوات التي كانت، على ما تميزت به معاركها من وحشية وبربرية، تدل دلالة قاطعة على ثبات الليبيين وصلابتهم العسكرية. ويتجلى التطور الذي طرأ على أساليب القتال في العصرين الإغريقي والروماني في أن المحارب الإفريقي، شأنه في ذلك شأن المحارب الفارسي المعاصر له، كان فارساً خفيف الحركة، سريع الانقضاض، وسرعته في التراجع تفوق سرعته في الهجوم، ولا قبل لمشاة العدو بالدنو منه. ولذلك فنحن نجد أن الخيالة الإفريقيين، ومنهم الليبيون، كانوا في أيام يوليس قيصر نادراً ما يشتبكون مع عدوهم على أرض مستوية، لأنهم

كانوا يفضلون أن ينصبوا له الكمائن بخيولهم بين الأودية ثم ينقضون عليه فجأة. وفي بعض الأحيان فقط كانوا يحاربون بمؤازرة مشاة مسلحين تسليحاً خفيفاً وذلك لكي يتمكنوا من التحرك بسهولة وبسرعة ولكي يتمكنوا من المحافظة على التماسك والثبات. ونحن نلمح صفة الثبات القديم هذه ماثلة في منطقة طرابلس في مرحلة لاحقة عندما نجد الليبيين ينيخون جمالهم على شكل دائرة يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في وسطها ثم يستحمون هم أنفسهم خلف صفوف الجمال استعداداً لقتال العدو المهاجم.

وهنالك ناحية أُخرى تدل على أن الليبيين عرفوا أساليب القتال المنتظم من وراء خطوط محصنة؛ فقد وجدت آثار حصون جيدة في أماكن متفرقة من ليبيا وخاصة في مناطق قبيلة الأوسخيزي وقبيلة الناسامونيين. وهذه مسألة لم يرد لها ذكر في أية مصادر تاريخية باستثناء أحد النقوش المصرية الذي يظهر فيه رمسيس الثاني وهو يقتحم حصناً اسمه «ساتونا» «Satuna» – والمفروض أن هذا هو اسم إحدى المدن السورية القديمة -. والغريب في أمر هذا النقش أن حامية الحصن هي عبارة عن خليط من الآسيويين والليبيين؛ وهذه ظاهرة جديرة بالاهتمام حتى لو سلمنا جدلاً بان العملية، موضوع النقش ولم تقع في ليبيا وإنما وقعت في سوريا لأن مغزاها واضح وهو يؤيد ما ذهبنا إليه في بداية هذه الفقرة.

وفي وقت لاحق نجد القتال من داخل دائرة من الجمال يصبح لعبة محببة لدى الليبيين يلجأون إليها لاستيعاب هجوم أعدائهم. فقد كانت الجمال تناخ على شكل دائرة ثم يصطف المحاربون خلفها بينما يضعون نساءهم وأطفالهم وأمتعتهم في الوسط[30] - وفي بعض الأحيان كان الرجال ينصبون تروسهم أمام الجمال لوقايتها من أذى المهاجمين وسهامهم، ولم يكن البربر القدماء أقل شجاعة فردية من أحفادهم، ولكنهم كغيرهم من البدائيين كانوا يصابون بالذعر في بعض الأحيان كما حدث عندما تمكن بضعة من فرسان يوليس قيصر الغاليين (الفرنسيين) من تشتيت ألفي

30- Procopius, De bello Vandalico, ii, 11.

فارس من فرسان شمال إفريقيا. ولكن هؤلاء الأخيرين كانوا في الأحوال المواتية يتفجرون جرأة وعناداً في وجه أعدائهم، فثورة إنارس «Inarus» وتكفاريناس (Tacfarinas) كانتا في حد ذاتهما عمليتين جريئتين تميزتا بالشجاعة والتصميم وإن كانتا فشلتا في تحقيق أهدافهما. ونحن ما نزال نذكر ما قاله ليفي (Livy) من أن سيوف المرتزقة الليبيين هي التي أدت إلى هزيمة روما في معركة كاني (canae)[31]. وبالرغم من أسلحة الليبيين كانت ضعيفة ومختلفة إلا انهم في حالات استقلالهم التام، كما حدث في عهد الدولة المصرية الحديثة مثلاً، كانوا يتميزون دائماً بكثرتهم وشجاعتهم التي كانت تكفي لتشكيل تهديد دائم لمصر لو لم يكن ينقصها التنظيم بصورة مركزة. وفي العصر الكلاسيكي ظل الليبيون يتحلون بشجاعتهم القديمة كما أنهم تمكنوا بفضل انتشار الحصان والجمل، من تطوير تكتيك حربي يعتمد على مناوشة العدو وإنهاكه. أما قدرتهم على الاتحاد فإنها لم تتطور كثيراً كما أن أسلحتهم، بعكس أسلحة أقوام البحر الأبيض المتوسط الأخرى، لم تتحسن. ولذلك فإنهم لم يستطيعوا الصمود أمام الخيالة الرومان المنظمين المدربين تدريباً حسناً، ولا أمام العرب المسلمين الذين كانت حرارة الإسلام في بداية عصره قد وحدت صفوفهم وقلوبهم. وبإيجاز فإن تاريخ الليبيين العسكري على غموضه يبرز مزية عامة لهم هي الشجاعة الفردية التي تصل حد التوحش والتي فقدت فعاليتها لانعدام الطاعة والثبات والانضباط.

31- Livy, xx, 47, 48.

الأدوات المنزلية:

يمكننا أن نجمل أدوات الليبيين المنزلية القديمة والتي وردت ما يثبت وجودها، كما يلي:

الكراسي:

فقج كان بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من مربي عرش هذا الأمير الليبي، ولكن المفروض أن الكراسي لم تكن شائعة الاستعمال.

الزّهريات:

لقد سبق ذكر الزهريات الذهبية والفضية والبرونزية بين الغنائم التي استولى عليها المصريون من الأمراء الليبيين. وتدل أشكال تلك الزهريات، كما صورتها النقوش المصرية، على أنها كانت من صنع سوري. ولتلك الزهريات أهمية خاصة من حيث دلالتها على ثراء الأمراء الليبيين وعلى علاقاتهم بالآسيويين.

الأواني الخزفية:

من المحتمل أن يكون المصريون قد قصدوا هذا النوع من الأواني عندما سجلوا في قوائم غنائمهم من الليبيين «الزهريات المتنوعة». ومن المؤكد أن الليبيين كانوا يستعملون فناجين خزفية وجراراً فخارية، وإن كانت الخزفيات إجمالاً نادرة لدى الجرامنتيين.

أواني قشر بيض النعام:

لما كان الجرامنتيون لا يستطيعون صنع الأواني الخزفية نظراً لأن تربتهم رملية فقد عملوا فناجين من قشر بيض النعام. وقد ذكر ميلا[32] أن الليبيين عرفوا نوعاً آخر من الأواني هو الأولني المصنوعة من الخشب أو لحاء جذوع الشجر.

الحبال:

وكانوا يصنعونها من الجلد أو من ألياف النخل كما أنهم كانوا يصنعون

32- Mela, I, 8.

من الليف أيضاً عصبة الرأس (نظير العقال عند العرب). أمّا المقلاع فلابد أنهم كانوا يصنعونه من الجلد – وكانوا كذلك يصنعون الحبال النباتية من نبات اسمه «Lygeum Spartum». وقج وجد أوريك بيتس حبلاً من هذا النوع حزم به كفن أحد البدو الرحل في قبر اكتشفه بيتس في جربة، قرب سيوة سنة 1910م.

قِرَب الماء:

سبقت الإشارة إليها وإلى كيفية حملها.

السّلال:

تدل إحدى الصور على آثار بني حسن أن السلال كانت مستعملة عند الليبيين، فقد ظهرت الليبيات في تلك الصورة وهن يحملن أطفالهن في سلال على ظهورهن.

الحصر الجلدية:

لقد عرف الليبيون الحصر الجلدية وإن كان بروكوبيس[33] - إما لأنه كان يتحدث عن بيئة ليبية فقيرة أو ميلاً منه للمبالغة في تأخر القبائل الليبية البدوية وهمجيتها – يقول إن عظماء الرجال فقط هم الذين كانوا يتمتعون بهذه الكماليات ولا شك أن الليبيين كانوا يقتنون أشياء أُخرى كثيرة لم تذكرها مصادرنا من الإبر والخيوط والأكياس الجلدية والأدوات اللازمة لصنعها، وأوعية لغلي اللحم، وأزندة من الصوان أو غيره وأدوات لتصنيع الجلود. وكان الليبيون الذين شغلوا الأجزاء الشمالية من الفيوم يمتلكون نوعاً بسيطاً من الطواحين اليدوية يستعملونه في طحن حبوبهم. وما زالت أمثال هذه الطواحين تكتشف في المواقع التي كانوا يسكنونها.

الموسيقى والرقص:

كانت الموسيقى الليبية في منتهى البدائية. وكان أبسط أشكالها تلك الصرخات التي كانوا يطلقونها في حالة نشوتهم والتي لاحظها هيرودوتس بين ليبيي عصره وقال في معرض حديث عنها: «إن الصرخات العالية أثناء

33- Procopius, De belloo vandalico, ii, 6.

أداء الطقوس الإغريقية إنما نقلت عن إفريقيا حيث تتميز بهذا النوع من الصراخ. النساء الليبيات اللواتي يطلقن صرخاتهن بشيء غير قليل من الحلاوة»[34]. ولعل هذه الصرخات هي أصل الزغاريد المألوفة في هذه الأيام.

وبالإضافة إلى هذه الصرخات فلابد أن الليبيين القدماء كانت لهم أغانيهم التي كانت دينية في بعض الحالات كالذي ذكر من أن النساء الليبيات في سيوة كن وقت عبادتهن للإله آمون «يتغنين بترنيمة غريبة على طريقة أهل البلاد».

أما الآلات الموسيقية القديمة عند الليبيين فإن ما وردنا عنها قليل. ويبدو أن نوعاً من الصنج كان مستعملاً كما يظهر في الرسوم المصرية. وكانت هنالك آلة أُخرى هي الطبل ذو الوجهين في الرسوم المصرية. وكانت هنالك آلة أُخرى هي الطبل ذو الوجهين الذي يدل شكله على أنه كان مصنوعاً إما من الفخار أو الخشب الذي غطيت نهايتاه بالجلد. وكان هذا الطبل يحمل برباط يشده إلى الكتفين ويتركه يتدلى أفقياً بحيث تكون طبلتاه في وضع قريب من اليدين ليمكن الدق عليهما بسهولة.

وهنالك آلة موسيقية ثالثة هي المزمار البسيط ذو القصبة الواحدة وكان يصنع في الغالب إما من الخشب أو من عظام الساق لنوع من الطيور الكبيرة، وكان به عدد غير معروف من الثقوب التي يستعملها العازف لعزف ألحانه المختلفة. ولعل هذا المزمار هو سلف الشبابة الحالية وإن كان يختلف عنها في أن طرفه من جهة الفم كان أدق من الطرف الآخر. وفي الحديث عن المزمار لابد أن نشير إلى «دوريوس ساميوس»[35] (Dorius Samius) ذكر وجود المزمار المزدوج (سلف المقرونة الحالية) عند الليبيين.

أما أكثر الآلات الموسيقية الليبية تقدماً، وهي آلة وردت عليها إثباتات قديمة، فقد كانت القيثار الصغير ذا الزاوية القائمة. وقد كان هذا النوع من القيثار شائع الاستعمال في مصر إلى جانب أنواع أُخرى من القيثارات

34- Herodotus iv, p. 305.
35- Dorius Samius, Frag. 34 in Fragmenta Historicorum Graecorum (Edited by Muller, Paris, 1841).

التـي كانت أكثر منه تعقيداً. ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة ولعل الليبيين كانوا يستعملون جميع الآلات الموسيقية المذكورة في وقت واحد في مناسبات الاحتفالات العامة إذ إننا نجد أحد النقوش المصرية يمثل جميع هذه الآلات أثناء استعمالها في آن واحد.

وكان الليبيون يقومون بالرقص ويسيرون في مواكب احتفالية؛ فقد كان المرتزقة منهم في الجيش المصري يمارسون الرقص الحربي في عهد الدولة الحديثة. وكان المرتزقة من التمحو ينقسمون وقت الرقص إلى فريقين أحدهما واقف يضبط الإيقاع «بالطق» أي القرع بعصا على أُخرى. والفريق الثاني يتحرك ويقفز على ذلك الإيقاع. وهنالك مشهد آخر في النقوش المصرية يذكرنا بالرقصات الحربية التي تمارسها الأقوام البدائية وخاصة القبائل الهندية الحمراء في أمريكا. وقد سبقت الإشارة إلى رقصة أُخرى هي ذلك الرقص الديني الذي كانت تمارسه عذارى الأوزيين والذي يمكن أن نعتبره نوعاً من الرقص الحربي. ويشير أوريك بيتس[36] بهذا الصدد إلى رقصة كان أهل سيوة يمارسونها وهي ليست عربية وليست سودانية وكان شباب سيوة يؤدونها مرة واحدة في السنة بمناسبة مولد سيدي الشيخ سليمان. ولي الواحة. فيقفون في صفين متواجهين ويقومون بحركات هي أقرب إلى الرقص الريفي في إنجلترا منها إلى الرقص العربي أو السوداني مما يرجح الاعتقاد أنها رقصة قديمة موروثة عن الليبيين الذين كانوا يسكنون الواحة.

ومن الواضح أن المواكب كانت تشكل جزءاً من الاحتفالات الليبية الدينية فقد كان الأوزيون يكرمون إلهتهم أثينا (الأوزية) بموكب سنوي يدورون فيه حول بحيرة «تريتونس Tritonis» (شط الجريد بتونس) كما أن طقوس عبادة الإله آمون كانت تتميز بالمواكب. وقد وصف سيليوس الإيطالي[37] مواكب الحداد حول جثمان الأميرة اسبستي (Asbystae). وكان

36- Bates, Oric, The Eastern Libyans,, Macmillan & Co. Limited, Sy. Martin>s St. London 1914, p. 156.
37- Siliuus Italicus ii. 265.

هنالك أيضاً موكب سنوي مقدس يحمل خلاله رمز آمون. إله طيبة. ويدار به في ليبيا طيلة اثني عشر يوماً.

النقش والنحت:

لقد سبقت الإشارة إلى النقوش الصخرية في الصحراء الكبرى عامة وفي الصحراء الليبية خاصة. أما المنحوتات التي عرفت فعلاً في ليبيا فهي قليلة وترجع إلى عصر متأخر. ولعل أهم هذه المنحوتات ما وجد في غرزة (على بعد سبعين فرسخاً[38] إلى الجنوب من طرابلس عندى ملتقى خط عرض 10~ °31 شمالاً مع خط طول 41~ °14 شرقاً). وكان قد زار آثار غرزة هذه لأول مرة رجل اسمه كابتن سميث (Captain Smith R. N.) من الأسطول البحري الملكي البريطاني في مارس سنة 1817 م. وكتب يصفها بقوله:

« هذا الموقع عارٍ تظهر فيه كتل قاحلة من الحجر الجيري والحجر الرملي وتقطعها في عدة أماكن فروع وادي زمزم الكبير. وبالرغم من أنني كبحت جماح خيالي ولم أسمح له أن ينطلق متناسباً في تحليقه تناسباً تصاعدياً مع الروايات المثيرة التي سمعتها عن هذا الموقع. إلا أنني لم استطع تفادي الشعور بخيبة الأمل لدى رؤيتي للأبنية السيئة. التي ترجع إلى تاريخ حديث نسبياً وتقوم على حافة الرابية الجبلية. ولبعض القبور ذات الأساليب المختلفة التي تتميز باللامبالاة في الذوق. وتتحلى بأعمدة خالية من التناسب تعلوها تيجان ليس بينها وبين الأعمدة أي انسجام».

ولكن بالرغم من خيبة أمل الكابتن سميث فإن منقوشات ومنحوتات غرزة هذه تكتسب أهمية خاصة عندما نتذكر أن شكلها ومستواها الفني يدلان على أنها كانت من عملٍ محلي وأنها إنما تمثل مرحلة متوسطة بين النقوش الصحراوية القديمة وبين النقوش الرومانية.

وقد اكتشف «دوفيريير Duveyrier» قرب غدامس لوحاً حفر عليه مشهد تظهر فيه فتاة ملتفتة نحو اليمين وهي جالسة على كرسي بسيط

38- League = الفرسخ = 4 ميل

من نوع كراسي المعسكرات. وقد وضعت قدميها على موطىء خشبي وهي ترتدي حلة طويلة. وشعرها مسرح تسريحة غريبة. وقد مدت ذراعها اليمنى ورفعت فيها جريدة نخل أو ريشة نعام ربط في نهايتها شيء صغير مثلث الشكل. وتظهر خلف هذه الصورة صورة أُخرى أصغر منها كثيراً ولكنها مشابهة لها وربما كانت تمثل إحدى وصيفات الفتاة الأولى. ويظهر أمام الشكل الكبير بناء نصف مقوس تمتد نحوه الجريدة أو الريشة. وتحت نصف القوس شكل ثالث تهشم حتى لم يبق منه إلا الذراع اليمنى. وليس من شك في أن هذا اللوح في مجمله وفي تفاصيله يعكس تأثيراً مصريا قويا يشير إلى عهد الدولة الحديثة ولكن من الثابت أنه من صنع محلي يدل على ذلك الزي البربري الذي كسيت به الصورتان. أما مغزاه فهو ديني: فشكل الفتاة الجالسة ووصيفتها يوحي بأنهما تؤديان طقساً دينياً أمام إله أو روح يسكن المكان المقدس نصف المقوس. وإذا سمحنا لأنفسنا بعقد مقارنة بين فن النقش الصخري في العصر الحجري الحديث وبين فن النحت. على ضآلة ما عرف عنه وما اكتشف منه حتى الآن خرجنا بالقول إن الليبين القدماء الذين بلغوا شأواً معقولاً من الإبداع في فن النقش الصخري لم يبلغوا في فن النحت مستوى يجعل هذا الفن وسيلة تعبير طبيعية وسهلة.

فن البناء:

إن مما يلفت النظر في الآثار الليبية أنه لم يكتشف بينها حتى الآن شيء من النصب الميجاليثية التي ترجع للعصر الحجري بعكس ما عليه الحال في المغرب الأقصى حيث توجد آثار ونصب ميجاليثية كثيرة. ويميل أوريك بيتس[39] إلى تأكيد النظرية القائلة إن البناة الميجاليثيين كانوا قوماً من غرب أوروبا قدموا عبر شبه جزيرة إيبيريا إلى المغرب ولكن موجتهم توقفت عند تونس.

وفي العصر التاريخي نجد لدى بعض الليبيين قلاعاً لا تزال آثارها قائمة في المنطقة الجنوبية الغربية من برقة. ولابد أن طبيعة حياة القبائل الليبية غير المستقرة كانت تقتضي وجود حصون هنا وهناك في مناطق تجوال تلك

39- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limiited, St. Martin>s St, London, 1914, p. 160

القبائل لتكون بمثابة معاقل يلجأون إليها عند الخطر. أو يخزنون فيها ما بأيديهم من أمتعة أو غنائم أو يستعينون بحماتها الأقوياء من أتباعهم. ويقول ديودورس الصقلي بهذا الخصوص: «إن زعماء البدو الرحل من الليبيين لم تكن لهم مدن تجمع شملهم وإنما كانت لهم معاقل قرب مصادر المياه يخزنون فيها ما لديهم من غنائم فائضة عن الحاجة». وقد أيد بلايني الكبير ما ذهب إليه ديودورس الصقلي.

ولدينا مزيد من الإثباتات عن وجود هذه القلاع: فكثيراً ما ورد ذكرها عند الكتاب والأدباء الكلاسيكيين. كما أن شيئاً من آثار هذه القلاع ذاتها ما زال قائماً إلى اليوم. وقد شاهد تلك الآثار عدد من الرحالة الحديثين وأعطونا فكرة عن حجومها ومخططاتها وبنائها. ولا تزال آثار واحد من هذه الحصون تشاهد في «هوا سيجال Haeah Segal» في الجنوب الغربي من برقة وهي تدل على أن البناء كان من نوع بدائي خشن يتكون من قطع مستطيلة من الحجارة مثبتة في الأرض بحيث تكون مستطيلاً أبعاده 36×45 متراً. ولابد أن هذا البناء كان في الأصل عبارة عن زريبة مبنية بالطين وأغصان الشجر أو الحجارة الصغيرة.

ولعل أهم هذه الآثار في ليبيا هي تلك القلاع المبنية من عدة أضلاع من الجدران الحجرية في الجزء الجنوبي الغربي لبرقة. ويقول بيتشي: «هنالك آثار عديدة لقلاع قديمة إلى الجنوب من بنغازي. وبعضها تختلف كلية في مخططها عن القلاع الإغريقية والرومانية»[40].

وهذه القلاع ذاتها مبنية «بحجارة كبيرة غير متساوية في حجومها رصت على بعضها البعض دون إسمنت أو طين على أسلوب البناء السيكلوبي «Cyclopian». وكانت أبعاد هذه الأبنية بصورة عامة تتراوح بين (30) إلى (45) متراً في الطول و(24) إلى (30) متراً في العرض. وكان شكلها مستطيلاً وزواياها أسطوانية كما وجدت في مناطق بعض القلاع قبور محفورة في الصخور. وكان يحيط بالقلعة في أغلب الحالات خندق

40- F.W. & H.W. Beechey, Expedition to the North of Africa, p. 244.

عميق أُقيم على حافته الخارجية جدار متين قصير مشيد بقطع كبيرة من الحجارة.

وليس ثمة أدنى شك في أن هذه القلاع وطنية محلية لأنها تختلف في مخططاتها وبنائها عن القلاع البونيقية والإغريقية والرومانية في الشمال الإفريقي، ولأنها موجودة في مناطق كان التأثير الأجنبي فيها ضعيفاً إلى حد يبرّر إهماله. وقد عزا بارث هذه القلاع لقبيلة الأوسخيزي لأن ما شاهده منها كان واقعاً على حافة منطقة سكنى هذه القبيلة قديماً قرب خليج سرت الكبير. ويرجح أوريك بيتس[41] أن تكون تلك القلاع من مخلفات الناسامونيين فقد وجدت آثار بعضها ضمن الحدود الشمالية لمنطقة سكناهم حول القسم الشرقي من خليج سرت الكبير. كما أن هذه القبيلة كانت أقوى من جيرانها الأوسخيزي وبالتالي أجدر بإقامة القلاع. وعلى أي حال هذه القلاع تشهد أن بناتها كانوا يتمتعون بقسط لا بأس به من المهارة في البناء أو أنهم كانوا يسيطرون على أصحاب تلك المهارة ويستخدمونهم. أما زمن هذه القلاع فيمكن رده إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد.

وكانت مساكن الليبيين القدماء إما الكهوف الطبيعية أو المنازل الثابتة أو الأكواخ المتنقلة. ومن الملاحظ أن بعض الليبيين كانوا لا يزالون حتى عهد قريب يسكنون الكهوف الطبيعية في مناطق متفرقة من البلاد وخاصة في تلال الجبل الأخضر في برقة، والكهوف الاصطناعية، كما لا يزال يشاهد حتى اليوم في غريان وجبلها[42].

ولما كانت أغلبية الليبيين تعيش عيشة البدو الرحل فإنهم لم يسكنوا منازل ثابتة وإنما سكنوا الخيام والأكواخ المتنقلة. وفي عهد الأسرة المصرية التاسعة عشرة كان الليبيون يستخدمون خيام الجلد التي كانت شائعة في فزان حتى وقت قريب. ولابد أن الخيام ظلت مستعملة لوقت طويل بعد ذلك التاريخ. وبالإضافة للخيام كان الليبيون يسكنون أكواخاً متحركة

41- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin>s St., London, 1914, p. 166.
42- Vischer, Across the Sahara, p. 38.

عرفها الرومان باسم «مباليا أو مجاليا Mapalia, Magalia»[43] وكانت هذه المباليا عبارة عن أكواخ متنقلة. وقد وصف هيرودوتس مساكن الناسامونيين «بأنها كانت تعمل من عروق البروق[44] أو من القصب المشدود بعضه إلى بعض». وكان نقل هذه الأكواخ من مكان لآخر[45] أمراً سهلاً لأنها لم تكن في الواقع سوى حواجز خفيفة تقي ساكنها من الشمس والريح. وكانت المباليا مستخدمة لدى النوميديين وفي داخل مارماريكا ولدى الرعاة الإفريقيين بصورة عامة مما يدل على مدى انتشار هذا النوع من المساكن المتنقلة ليس في ليبيا وحدها وإنما في الشمال الإفريقي بأسره. وفي زمن الحروب البونيقية لم يكن لدى الجنود النوميديين في الميدان أي مأوى غير هذه الأكواخ[46] ولهذا السبب تمكن القائد الروماني سكيبيو أفريكانوس «Scipio Africanus» في إحدى المناسبات من إحراق معسكر سيفاكس «Syphax»[47] النوميدي.

ولا شك أن شكل المباليا كان يختلف من منطقة لأخرى ومن بنَّاء لآخر فقد كانت المباليا النوميدية أشبه بشكل القوارب المقلوبة وكان يدعمها من الداخل عصي أو أعمدة خشبية مغروسة في الأرض. وأغلب الظن أنها كانت شديدة الشبه بأكواخ منطقة طرابلس. وبعض الأكواخ كان شبيهاً بالأفران ولعل هذا النوع هو الذي تظهر أشكاله في الفسيفساء التي اكتشفت في موقع «العالية» بتونس. وتمثل هذه الفسيفساء مشهدين من النيل ولكن فنّان الشمال الإفريقي زين المشهدين بصور أكواخ من الواضح أنها كانت مباليا. وقد علمت هذه الأكواخ بشد عدد من العصي إلى بعضها البعض ثموضع فوقها سقف من الأغصان المنسوجة. ويتخذ هذا السقف شكل مخروط يستطيل ويستدق عند نهايته العُليا بشكل لافت للأنظار. ولعل الغاية من هذه النهاية المستطيلة المنحنية كانت امتصاص الدخان.

43- لعل هذه التسمية من أصل بونيقي.
44- البروق (asphodel) نبات من الفصيلة الزنبقية يرد ذكره كثيراً في الأساطير اليونانية.

45- Herodotus, iv, p. 305.
46- Livy, xxx. 3.
47- Ibid., xxx 5.

وهنالـك نوع آخر مـن المباليا كان جداره الدائري يتكون من الوتل[48] وسـقفه المخروطي من القش المنسوج. ونستطيع بصورة عامة أن نصنّف هذه الأكواخ إلى صنفين: الأول يشـبه النوع الذي كان سائداً في منطقة طرابلس وكانت مصطبته أشـبه بالمقطع الطولي لخيارة كما أن سقفه كان من الوتل وكان مقوسـاً أو منحنيـاً. والثاني هو النـوع الذي يمثل في الشـكل (47) وكانت مصطبته دائرية وسقفه مخروطياً.

أمـا المنـازل الليبيـة الثابتة فقـد كانت فـي الواحات وقد ذكـر كل من هيرودوتـس[49] وبلاينـي أن هـذه المنازل كانـت تبنى من الملـح وهو وصف من السـهل أن يكون مضللاً خاصة إذا قارنا هذه المنازل التي مازالت شـائعة في واحة سـيوة وهي تبنى بدعائم من جذوع النخـل والحجارة وملاط من الطين والملح.

ولابد أن الليبيين شـيدوا الآبار وخزانات المياه في وقت مبكر من تاريخهم، فقد ذكر هيرودوتس أن البسـلّي كانـوا يجمعون مياههم في خزانات كما أن الأعـداد الكثيـرة من الخزانات والآبـار التي يصادفها المرء على طول الشـمال الإفريقـي من مصر إلـى تونس، وإن كانت يغلب على بنائهـا الطراز الروماني، لابـد أن أصولهـا كانت أقدم منهـا بكثير. وتوجد مخازن الحبـوب في أماكن متفرقـة من ليبيا ولكن مـن الصعب أن نقرر ما إذا كانـت ليبية أو إغريقية أو رومانية لأنها مجرد حفر في الصخور على أشـكال مكعبة أو على شـكل الزجاجـة. وتثبت وجودها فـي ليبيا آثارها من ناحية والمصادر الكلاسـيكية مـن ناحية أُخرى. فقـد ذكر مؤرخ حروب يوليس قيصر فـي إفريقيا «أنه كان من عادة الإفريقيين أن يضعوا حبوبهم في مسـتودعات مقوسة تحت الأرض لحمايتها أثناء الحـروب، ولحمايتها من غارات الأعداء المفاجئة. وقد وجد مخزن حبوب من هذا النوع في جزيرة بلاتيا بخليج بمبا ووجد مخزن آخر في مرسـى سوسة (= أبولّونيا).

48- قضبان تضفر مع الأغصان والقصب لإنشاء الأسيجة أو الجدران والسقوف = Wattle
49- Herodotus, iv, p. 304.

الدين :

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها الديانة الليبية القديمة إلى ثلاث:

1- مرحلة تقديس مظاهر الطبيعة والاعتقاد أن لها أرواحاً.

2- مرحلة الإيمان بالأخرويات من بعث وحساب.

3- المرحلة اللاهوتية.

المرحلة الأولى:

فـي هذه المرحلـة كانت المعتقـدات الدينية التـي عرفهـا الليبيون من النـوع البدائي البسـيط المتعلق بعبادة الحيوانات وتقديسـها شـأنهم في ذلك شـأن كل الشـعوب في مراحل تاريخها البدائي. فقد كان ابن الشمال الإفريقـي البدائـي في المرحلـة البكرة من تاريخه يشـعر بـأن العالم مليء بالقوى الروحانية وبـأن كل ظاهرة من ظواهره الطبيعية مليئة بتلك القوى كذلك. وهكذا فإن الآبار والأشجار والتلال والسحب والعواصف... الخ كانت تسكنها، في نظره، أرواح أعطت كلاًّ منها الطابع الذي يميزه عن غيره. وحتى بعد مضي زمن ليس بقصير وبعد أن حلت محل هذه العقائد مفاهيم أخرى أوسـع منها وأعمق، فإن العقائد الأولى بقيت تسيطر على عقول الجماهير. ففي العصر الكلاسـيكي نجد أن نافورة الشمس في سيوة لفتت أنظار عدد كبيـر من الكتاب فعزوا إليها صفـات حرارية ربما كانت تتوافر فيها كما كما عـزوا إلى لونها كثـرة التغير والتقلب؛ وهي صفات مـن المؤكد أنها لم تكن فيه[50]. ومن المحتمل أن النافورة الرائعة في قورينة، وهي التي كرسـت لأبولّو بعد نزول الإغريـق في ذلك المكان، كانت تحظى بكثير من الاحترام والتقديس قبـل العصر الإغريقـي. وكان الليبيون في العصر الكلاسـيكي يعتقدون أن الحجارة الكبيرة كانت تسكنها الأرواح. وقد بلايني[51] نقلاً عن ميلا[52] أن ليبي سـيوة كانوا يقدسـون حجراً من هذا النوع في تلك الواحة وكانوا يعتقدون أنه إن تجرأ أحدهم ولمسه بيده فإن ذلك كان يؤدي فوراً إلى قيام عاصفة رملية

50- Herodotus, iv, p. 303 & Diodorus Siculus xvii. 50.
51- Pliny, ii, 45.
52- Mela, i. 8.

مهلكة تعصف بالواحة.

وبالإضافة للحجارة كان الليبيون في العصر الكلاسيكي يقدسون التلال – وكانوا يعتقدون أن لكل تلّة روحاً توافيها بكل ما تقف عليه هي من معلومات – وهذه النظرة ذاتها كانت تتجسم بشكل أوضح لدى سكان المناطق الجبلية إلى الغرب من ليبيا؛ فقد ذكر بلايني أن الخشوع الديني كان يملأ قلوب من يقتربون منهم من جبل أطلس خاصة عندما كانوا يشاهدون قمته المرتفعة فوق السحاب إلى درجة تجعلها تبدوا قاب قوسين من القمر نفسه[53]. وقد ذكر الجغرافي الروماني ميلا في حديثه عن حجر سيوة الذي سبقت الإشارة إليه «أن ذلك الحجر كانت قدسيته في الأذهان مرتبطة بتقديس الريح الجنوبي (القبلي)، فإذا ما تجرأ أي إنسان ولمسه بيده كانت الريح الجنوبية تهب من فورها وتقذف الرمل في كل مكان كالمطر ويسمع لها هدير كأنه هدير الأمواج». وإذا ما أضفنا بعض القرائن الأخرى لقول ميلا هذا فإننا سنستنتج دون ريب أن الليبيين كانوا يعتقدون أن الريح الجنوبية ذات طبيعة روحانية، وهذه عقيدة كانت متعمقة في عقل البربر إلى حد أنها دامت حتى الوقت الحاضر. وهذه مسألة تذكرنا بما سبق أن سمعناه من هيرودوتس من أن البسلّي إنما قضت عليهم ريح جنوبية ظلت تعصف باستمرار حتى جففت مياه خزاناتهم مما حملهم على إعلان الحرب عليها، على حد ما رواه الليبيون لهيرودوتس، فساروا في الصحراء حيث هبت عليهم ريح من الجنوب فقضت عليهم بما كانت تحمله من رمال[54]. وهذه الاسطورة تذكرنا بأسطورة أُخرى تتعلق بالحملة التي كان قمبيز الثالث الفارسي قد بعث بها ضد سيوة. وقد روى هيرودوتس نفسه أن الفرس زحفوا من طيبة بمصر حتى بلغوا واحة الخارجة بسلام. وبعد ذلك «لم يعرف عنهم أي شيء سوى ما ذكره أهل سيوة ومن نقلوا معلوماتهم عنهم». فالجيش الفارسي لم يصل سيوة ولم يعد لمصر لأن المصيبة حلت به، كما تقول رواية أهل سيوة، عند نقطة في

53- Pliny, v. 1.
54- Herodotus, iv, p. 301. According to Nonnus (Dionysiaca, xiii – 381) the expedition of the Psylli was made by sea (!) and the ships were sun; by tempests from the south.

منتصف الطريق بين واحة الخارجة وواحة سيوة. فبينما كان الفرس يتناولون وجبة الغداء هبت عليهم من الجنوب ريح عاتية مهلكة تحمل معها أعمدة ضخمة من زوابع الرمال فدفنتهم كلية. ومن الواضح أن الشك يرجح على اليقين بالنسبة للقصة الأولى وهو أيضاً محتمل بالنسبة للقصة الثانية. أما قصة البسلي الحقيقية فتتلخص، على ما يبدو، في أنهم تراجعوا جنوباً مبتعدين عن الشاطيء تحت ضغط الناسامونيين الذين استولوا على ديارهم فكان في ذلك التراجع هلاكهم في الصحراء. وفي الحديث عن قصة الحملة الفارسية إلى سيوة لابد أن نلاحظ أن مسألة هبوب عاصفة رملية تغمر جيشاً بأجمعه هي مسألة ليس لها نظير في التاريخ الحديث. وقد تكون حدثت فعلاً في ذلك الزمن القديم ولكن يغلب على الظن أن يكون الفرس قد ضلوا طريقهم خلال عاصفة رملية عادية فدب الذعر في قلوبهم مما حملهم على قتل أدلائهم، أو حمل أدلاءهم على مغادرتهم فتاهوا بعد ذلك في الصحراء واستمروا يضربون في جنباتها على غير هدى حتى ماتوا عطشاً. ومهما يكن الأصل التاريخي لهاتين القصتين فإن هنالك أمرين يتعلقان بهما لابد من ملاحظتهما وهما:

1- أن هيرودوتس في روايته للقصتين إنما يسجل ما سمعه من الليبيين أنفسهم.

2- أن الإساءة للريح الجنوبية في إحدى القصتين، ولمعبد سيوة الصحراوي في الأخرى هي التي يفترض أنها جرت العقاب على المسيء بعواصف رملية عاتية أثارتها ريح الجنوب.

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن مسألة الاعتقاد بوجود أرواح في الرياح ما زالت سائدة في أيامنا هذه بين سواد الشعوب العربية. فأنا شخصياً ما زلت أذكر أن الناس في الريف الفلسطيني يعتقدون أن الزوبعة «الفلاتينة» إنما تحدث نتيجة قتال بين الشياطين؛ ولذلك فهم يخاطبونها كلما ثارت قريباً منهم بقولهم «على الظالمين والقوم الكافرين» إيماناً منهم أن ذلك الخطاب يجنبهم شرها وشر شياطينها من ناحية، ويصرف ذلك الشر إلى الظالمين والكفار من ناحية أُخرى. ولا شك أن فكرة مشابهة فيما يتعلق

بريـاح «القبلي» لا تزال سـائدة في الريف الليبي. كمـا أن الناس، في صعيد مصر ما زالوا يعتقدون أن الزوبعة إنما تثور في أعقاب طيران أحد الشـياطين أو الجن الفاسقين.

ولا شـك أن الليبيـين القدمـاء كانوا يعتقـدون كذلك بوجـود أرواح في قوس القزح وفي السـراب وفي النجوم، وأدى بهـم ذلك الاعتقاد إلى عبادتها وتقديسها[55].

وهـذا الاعتقاد بوجود أرواح في الظواهر الطبيعية المختلفة إنما هو نتيجة لتفاعلهـم ببيئتهـم الطبيعية ذات الصحراء الواسـعة الممتدة والسـماء العالية الصافية مما يجعل تلك الظواهر تتجسم هنا أكثر منها في أي مكان آخـر؛ فالنجوم مثلاً تبدو هنا أكبر حجماً وأكثر تألقاً. وكذلك الحال بالنسـبة للشـمس والقمر. والليبيون ليسـوا وحدهم في ذلـك الموقف الخاص بعبادة

55- أنظـر أيضـاً: ليبيـا القديمـة، نشـرة حوليـة تصدرهـا الإدارة العامة للآثـار والمتاحف والمحفوظات التاريخية بليبيا، وزارة التربية والتعليم، المجلدين الثالث والرابع، 1966 – 1967 ، ص 105-106 حيث يقول فروبينيسوس إن نقوش القرون التي تم اكتشافها في فزان إنما تهدف إلى أغراض رمزية، وإنها تشير إلى الضوء، وفي اعتقاده أن ثمة صلة تربط بين فكرة استعمال القـرون في عصور ما قبل التاريخ واسـتعمالها الرمزي فيما بعد فـي ثِقافات أخرى. وهو يرى أن تلك الصلة بين القرون من جهة والقمر والشـمس والنـور من جهة أخرى تبدو واضحة في النقاط التالية

أ- إبراز القرون على هيئة هلال.

ب- إضافة الهلال إلى رسم القرون.

ج- وضـع القرن على هيشـة دائرة، وإن كان مـن الصعب تحديد ما إذا كانت تلـك الدائرة ترمز للشمس أو للقمر.

د- إضافة خطوط على ههيئة شعاع قد يكون رمزاً لأشعة الشمس.

إضافة زخارف ترمز لأشعة الشمس من مثل الصليب بأشكاله المختلفة.

وهو يرى أن النماذج المختلفة ربما كانت تشـير إلى أن الناس كانوا يحاولون أن يربطوا بين الأرض وقـوى الفضاء التي تعـذر عليهم فهم ماهيتهـا. ويرى كذلك أن الآلهة والأجرام السـماوية والحيوانات ذات القرون ربما كانت تكون ثالوثاً رمزياً فيما قبل التاريخ مما جعل القرن يصبح فيما بعد أحد رموز القوة الروحية. ولقد تكهن البعض بأن القرن أصبح يمثل النور على الأرض نظراً للشـبه القائم بينه وبين الهلال، ونظـراً لخاصته الهجومية الدفاعية مما شـجع الاعتقاد أنه منبـع القوة والحياة وعندما أصبحت الماشـية من أهم مصادر الغـذاء، أصبح القرن يرمز ايضاً للخصوبة والتوالد بالإضافة إلى الاسـتمرار في اسـتعماله كعنصر فنـي. ومن ناحية أخرى فربمـا كانت له دلالة سـحرية؛ فنحن ما زلنا نرى بعض الرفيين يعلقـون العظام والقرون على أطظفالهم لتكون رُقي لهم.

ظواهر الطبيعة فقد شاركهم فيه العرب الساميون في شبه جزيرة العرب، والحاميون في إفريقيا الشرقية.

أما بالنسـبة للمحرمـات من المأكـولات فقد ذكر هيرودوتـس أن بعض الليبيين كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحم البقر تقديساً للإلهة المصرية إيزيس التي كانت البقرة رمزاً لها، وحتى من تأغرقوا منهم في قورينة كانوا يسلكون سلوكاً مشابهاً. وزيادة على ذلك فإن نساء مدينة برقة لم يكتفين بتحـريم لحم البقر فقـط بل حرمن على أنفسـهن أكل لحـم الخنزير كذلك. وبالإضافـة إلى هذا يبـدو أن لحم الكلب كان محرماً؛ فـكان لا يجوز أكله إلا فـي حالات معينة ولأسـباب خاصة. وبالرغم من أنه كان يعـرض للبيع في أسواق الشمال الإفريقي في القرون الوسطى إلا أن أكله كان يرتبط بخرافات شـائعة يسـتدل من طبيعتها علـى أنها وضعت في أوقـات قديمة كان لحم الكلب فيها محرماً.

وفي مجال التنجيم والعرافة والسـحر عرف عن أبناء الشـمال الإفريقي أنهـم كانـوا ماهرين فـي التنجيم فـي العصـر الروماني. وكمـا هي الحال بالنسبة لمعظم الشعوب البدائية الأخرى كان المنجم في أغلب الحالات امرأة وليس رجلاً. ومن الثابت بالنسبة لليبيين أن المنجم أو المنجمة كان في بعض الحالاتت يسـتلقي عند قبر أحد أسلافه مستعيناً به على كشف المستقبل ثم يفيق وقد رأى ريا يعتبرها وحياً من سـلفه. وفي أوجلة بالذات كانت أرواح السلف المؤلهين تعتبر ذات صلة بالسماء، وكانت تستشار بطريقة مشابهة أي عـن طريق النوم والأحلام[56]. وقد اعتبر هيرودوتس هذه العادة شـائعة بين الناسامونيين عامة حين قال: «إنهم كانوا يستعينون على التنبؤ بالمستقبل بالذهـاب إلى قبـور أجدادهم والنـوم عليها ثم يتصرفون وفقـاً لما يرونه من أحـلام هنـاك»[57]. ويذكر أوريك بيتس[58] أن نسـاء الطوارق فـي قرية الأصنام قرب غدامس كن في مطلع القرن الحالي يرتدين أجمل ملابسـهن ثم يذهبن

56- Mela, i. 8.

57- Herodotus, iv pp 300 – 302.

58- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St. London, 1914, p. 178.

إلى بعض القبور المشهورة مثل قبر «الزبار Zabbar» حيث ينادين الروح الساكنة بين القبور والتي يعرفنها باسم «إدِبْني Idebni»[59] فتظهر لهن على شكل عملاق ضخم عيناه بحجم عيني الجمل وتجيب على أسئلتهن التي لم تكن تعدو الاستفسار عن زوج أو قريب أو حبيب غائب. ويرى بيتس أن هذه العادة توضح وتؤكد ما ذهب إليه كل من ميلا وهيرودوتس.

ولقد مارس الليبيون القدماء السحر بنوعيه الأبيض والأسود. ويذكر بهذه المناسبة ما أحرزه المغاربة إجمالاً من الشهرة بالسحر في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فقد ذكر نيقولاوس الدمشقي «Nicoaus Damascenus»[60] نوعاً من السحر كانت تشترك في ممارسته قبيلة كاملة عندما قال إن ليبيين معينين كانوا يقيمون حفلاً سنوياً ينتهي مع غياب الثريا. وآنذاك كانت الأنوار تطفأ ويمارس المشتركون في الحفل العملية الجنسية مع المشتركات كيفما اتفق. ويقول أوريك بيتس[61] في تعليقه على هذا القول: «إن هذا العمل رغم بربريته كان دون شك يخدم غاية دينية هي تأمين محصولات وافرة».

ويشير هيرودوتس[62] إلى عادة التعاهد عند الناسامونيين فيقول إنهم كانوا عند إبرام العقود يتبادلون الماء فيسقي كل من الفريقين الفريق الآخر بيده. فإن لم يوجد الماء استعاضوا عنه بالتراب بحيث يأخذ كل من الفريقين شيئاً من التراب في راحة يده فيلعق الفريق الآخر شيئاً منه بلسانه. ويبدو أن غايتهم من ذلك كانت تثبيت الفريقين المتعاهدين على الوفاء بالعهد لاعتقادهم أن من نقضه بعد إبرامه على تلك الصورة سيقع فريسة لمرض عضال لا نجاة له منه. ولقد مارس الليبيون القدماء السحر من أجل ستنزال المصر كما مارسه البسلي الليبيون كحواة للأفاعي؛ فقد كان الاعتقاد السائد هو أم هؤلاء القوم يتحلون بقدة عجيبة على سحر

59- هذه الكلمة بلغة الطوارق تعني القبر = Idebni.
60- Nicolaus Damascenus, Frag. 135 in F.H.G.
61- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St Martin s St., London, 1914, p. 178.
62- Herodotus iv, p. 300.

الأفاعي ومعالجة عضاتها على نحو ما هي الحال في وقتنا هذا بالنسبة لأصحاب طريقة سيدي الرفاعي في مصر وغيرها. وكان من المعتقد أن ريق البسلي يضفي من عضة الأفعى السامة. ولذلك يقول بلايني عنهم: «إن في أجسام هؤلاء القوم نوعاً من السم الطبيعي القاتل للأفاعي[63] فإذا تعرضت الأفعى لرائحته تخدرت إلى حين ثم ماتت». وكانت عادتهم أن يعرضوا الطفل بعد ولادته مباشرة لأشرس الأفاعي؛ فإذا تجنبته الأفعى كان ذلك إثباتاً لصحة نسبه إلى والده من ناحية وإثباتاً لعدم خيانة الزوجة، أم ذلك الطفل، لزوجها من الناحية الأخرى. ومع أن بلايني لم يترك لنا وصفاً لتفاصيل أسلوب هؤلاء القوم في العلاج من عضة الأفعى، إلا أن قوله «إنهم كانوا يدهنون موضع العضة بريقهم» يشير إلى الطابع السحري الذي كان يتصف به أسلوبهم في العلاج. ومن المعروف أن البسلي كانوا يُستخدمون في العصر الكلاسيكي كأطباء لمعالجة عضة الأفعى السامة ولدغة العقرب[64] ولعل أشه مناسبة استعين فيها بخدماتهم دون جدوى هي عندما دعاهم أكتافيوس ليحاولوا إنقاذ كليونترة إثر إقدامها على الانتحار باستخدام أفعى سامة. ومن أجل هذا الغرض نفسه رافق عدد من البسلي جيش كاتو في مسيرته عبر منطقة خليج سرت الكبير. ويصف لنا كالياس السراقوسي[65] بوضوح أسلوب البسلي في علاج عضة الأفعى السامة عندما يقول إن الواحد منهم كان يعالج حالة التسمم البسيطة الناجمة عن عضة الأفعى بأن يبصق في الجرح الذي أحدثته العضة. أما في الحالات الخطرة فإنه كان يتمضمض بشيء من الماء ثم يفرغه من فمه في فنجان ويسقيه للمصاب. فإذا لم ينجح هذا العلاج تجرد البسلي والمصاب من ملابسهما واستلقيا متلاصقين إلى أن يتغلب البسلي بما أودع فيه من قوى عجيبة على آثار السم. ومن الواضح أن هذا الوصف يدل على عادة سحرية موقرة كان يتوارثها الأبناء في هذه القبيلة عن الآباء. ويبدو أن هذا النوع من السحر لم يلبث أن تحول إلى مجرد وسيلة لابتزاز الأموال.

63- ما زلت أذكر اعتقاد الناس في الريف الفلسطيني أن ريق الإنسان هو بمثابة السم القاتل للأفاعي.
64- Pliny, XI. 25.
65- Callias Syracusanus, Frag. In F.H.G., Vol ii.

وبالنسبة للسحر الأسود فإن أوريك بيتس[66] يعرب عن اعتقاده أن «الإصابة بالعين» ليست موروثة عن العرب فقط وإنما أيضاً عن قدماء البربر. وقد روى بلايني نقلاً عن اثنين من الكتّاب الإغريق «أن أسراً إفريقية معينة من السحرة كانت تستطيع عن طريق الاستحسان وإظهار الإعجاب أن تسبب الموت للقطعان والذبول للأشجار والموت للأطفال»[67]. ولقد سبق أن تعرضنا لمسألة استطلاع المستقبل بالنوم على قبور الأسلاف. ونحن نعرف أن لوسيوس أبوليوس (Lucius Apuleius)، الذي سنعرض لقصته فيما بعد، قدم لمحكمة صبراتة بتهمة أنه استخدم السحر الأسود ليحمل بدنتيلا (Pudentilla) على حبه والزواج منه. وقد مثل أمام المحكمة فعلاً في سنة 157 م. وقال في دفاعه عن نفسه: «أجيبوني أنتم، يا من تدّعون أن أبولويوس حاول أن يغوي روح بدنتيلاّ لتحجبه بأن استخدم السحر الأسود...»[68]

المرحلة الثانية:

أما فيما يتعلق بعبادة أرواح الأسلاف المؤهلين فإنها تتضح في طريقة الدفن وفي النظرة للموتى. وفي الحديث عن طرق الدفن التي اتبعها الليبيون القدماء يقول هيرودوتس[69]: طإن الليبيين الرحل، باستثناء الناسامونيين، كانوا يدفنون موتاهم على نحو ما يفعل الإغريق». أي إنهم كانوا يضعون الجثمان في اللحد ممدوداً من الشرق إلى الغرب أو بالعكس. أما الناسامونيون فكانوا يوارون الجثمان وهو في وضع الجلوس. ولذلك فإن أصدقاء المحتضر الناساموني كانوا يساعدونه في لحظات حياته الأخيرة على البقاء جالساً حتى يفارق الحياة. ويضيف الشاعر سيليوس الإيطالي أن الناسامونيين كانوا أيضاً يتخلصون من موتاهم بإلقائهم في البحر كما يذكر في الإشارة للجرامنتيين أنهم كانوا يدفنون موتاهم في حفرة رملية قليلة العمق. وقد

66- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London 1914, pp 180 – 181.
67- Pliny,` vii-2, on the authority of Isogonus and Nymphodorus.
68- Ward, Philip, Apuleius on Trial at Sabratha, the Oleander Press, London, 1968. p. 13.
69- Herodotus, iv, p. 305.

عرف الليبيون كذلك دفن الموتى تحت كومة من التراب يسهل معها تمييز القبر. والجدير بالملاحظة هو أن عادة الدفن كانت شائعة بين الليبيين عموماً؛ أما الحرق فلم يرد له ذكر سوى في حالة واحدة ذكرها سيليوس الإيطالي في معرض وصفه لجنازة الأميرة أسبتي (Asbyte)[70] وأنواع الدفن التي ذكرت هي:

1- دفن الجثة ممدودة.
2- الدفن بإلقاء الجثة في البحر.
3- دفن الجثة وهي في وضع الجلوس.
4- الدفن تحت كومة تراب تذكارية.

وربما كانت عادة دفن الجثة ممدودة، كما لاحظ هيرودوتس، شائعة بين الليبيين المتأغرقين في منطقة برقة. ذلك أنا نجد هيرودوتس يلاحظ عادة أُخرى بمجرد وصوله للناسامونيين حول خليج سرت الكبير.

أما عادة الناسامونيين في إلقاء الجثة في البحر فربما كانت ناشئة من أُصول نبعت في وقت لاحق كأن يكون الناسامونيون اقتبسوها مثلاً عمن احتكوا بهم من الغزاة من أقوام ما وراء البحر، أو إنها كانت ناجمة عن عرفان الناسامونيين بالجميل لهذا البحر الذي طالما زودهم بالكثير من خيراته.

ولكن طريقة دفن الجثة وهي في وضع الجلوس لم تكن مقصورة على الليبيين فقد كانت شائعة بين معظم شعوب القارة الإفريقية وبين الشعوب البدائية إجمالاً.

وجدير بالملاحظة أن اهتمام الليبيين القدماء اهتماماً فائقاً بدفن موتاهم إنما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بنوع من الحياة بعد الموت وإن لم يكن لدينا ما يثبت أنهم توصلوا لفكرة الحساب في الحياة الأخرى.

أما بالنسبة للكومة فإنما تدل على الطريقة التي كان الليبيون يميزون بها القبور ويخلدون بها ذكرى موتاهم. وقد كانوا يودعون الجثمان في لحد دائري أو

70- Silius Italicus, De Bello Punico, ii 263 sqq.

بيضوي مصفح من الداخل بقطع رقيقة من الحجارة ومسقوف بها بارتفاع يقارب نصف المتر. ثم يقيمون على ذلك اللحد كومة التراب التذكارية.

وقد كان الليبيون القدماء يسكبون بعض السوائل التي يقدمونها لموتاهم على قبور أولئك الموتى تركيكماً لهم كما كانوا يزورون قبور مشاهير رؤسائهم كانت نظرة دينية دون ريب. والذي يؤكد هذه النتيجة التي خلصنا إليها هو ليس فقط ما لحناه سابقاً من نومهم على القبور بقصد استطلاع المستقبل بل الحلفان بالموتى أيضاً. فقد ذكر هيرودوتس أن الناسامونى كان عندما يعقد يميناً «يضع يده على قبر أحد الموتى ممن عرف في حياته بالعدل والصلاح ثم يقسم اليمين باسم صاحب ذلك القبر»[71].

ولعل الحلفان باسم الأولياء والأنبياء بين المسلمين عامة في أيامنا هذه إنما هو صادر عن عاطفة مشابهة للعاطفة القديمة عند الليبيين. تلك العاطفة التي جرتهم للحلفان بموتاهم. وهذا في الواقع يقيم الدليل على أنهم كانوا يؤمنون بوجود حياة أُخرى[72].

المرحلة الثالثة:

بعد المرحلة الثانية انتقل الليبيون إلى مرحلة دينية متطورة عرفوا فيها آلهة متعددة ذات أسماء وأشكال مختلفة نذكر منها ما يلي:

1- الإله آش «Ash»: ذكر اسم هذا الإله الليبي في نقوش سحورع من الأسرة الخامسة. ويستدل من الصورة التي يظهر عليها هذا الإله في النقوش المصرية أنه كان من الآلهة المهمة عند الليبيين منذ أيام الدولة المصرية القديمة. وفيما عدا ذلك فنحن لا نعرف شيئاً عن طبيعته أو قدرته.

2- الإلهة شاهيدد «Shaheded»: لم يثبت أي شيء بالنسبة لهذا الاسم وإن كان البعض يعتقدون أنه اسم إلهة ليبية استناداً لما ورد على

71- Herodotus, iv, p. 300.

72- تجدر الإشارة بهذا الصدد إلى نقشين رومانيين متأخرين وجدا على آثار غرزة وتظهر فيهما الكتابات التي نقشها الأبناء تخليداً لذكرى آبائهم واختتموها برغبة غريبة فحواها أن يتمكن الموتى الذين تدل أسماؤهم على أنهم كانوا وطنيين. من زيارة أحفادهم «وجعلهم مثلهم هم أنفسهم».

بعض الألواح التي وجدت في الدلتا وذكرت عليها أسماء بعض الليبيين المقيمين هناك.

3- الإله سينيفيري «Sinefere»: ذكر كوريبّوس «Corippus»[73] إلهاً بهذا الاسم قال إن الليبيين كانوا يعبدونه. ويستنتج مما كتبه كوريبّوس عن هذا الإله أنه كان إله حرب قبلي بمعنى أنه كان يساعد أتباعه في الحرب وفي السلم على أساس نزعة قبلية.

4- إله البحر بوزايدن «Poseidon»: ذكر هيرودوتس أن الإغريق أخذوا هذا الإله عن «الليبيين الذين كانوا دائماً يعبدونه ولقد انفردوا بين الشعوب القديمة بأن كان لهم دون سواهم إله بهذا الاسم»[74]. وتدل كلمة هيرودوتس هذه على أن ليبيي الساحل كان لهم في القرن الخامس قبل الميلاد إله بحر مشهور ذو طبيعة عامة. وكان هذا الإله يعبد بصورة خاصة حول بحيرة تريتونس (= شط الجريد بتونس). ونحن لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان هذا الإله ليبي الأصل أم أنه قدم إلى ليبيا مع أقوام البحر التي تحالفت مع الليبيين في غزو مصر.

5- بسافون «Psaphon»: يذكر ماكسيموس الصوراني[75] «Maximus Tyrius» أن رجلاً ليبياً اسمه بسافون كان يطمح إلى الألوهية. ومن أجل تحقيق غايته جمع عدداً كبيراً من الطيور الناطقة وعلمها أن تردد «الإله بسافون العظيم» ثم أطلقها فانتشرت في الأحراش وهي تتغنى بتلك الكلمات. واعتقد من سمعوها من الليبيين البسطاء أن تلك الأصوات كانت إلهية فبدأُوا يقدمون القرابين للإله بسافون. ولعل هذه الأقصوصة إنما هي محاولة متأخرة من جانب الكاتب لتفسير أسباب عبادة هذا الإله. وجدير بالذكر أنه لم تتوافر أية بينات أُخرى بهذا الصدد.

6- إله الشمس: لقد سبقت الإشارة إلى أن بعض علامات الوشم التي وجدت على رسوم الليبيين في النقوش المصرية كانت ذات مغزي ديني. ونضيف

73- Corripus, Johannis, iv. 681.

74- Herodotus, II, p. 123.

75- Maximus Tyrius, Dissertat – XIX.

هنا علامات الوشم المصلبة التي ما زالت توجد بين البربر الليبيين حتى اليوم، إنما كانت تشير إلى عبادة الليبيين القدماء للشمس باعتبار الصليب رمزاً لأشعتها. ومن المعروف أن عبادة الشمس كانت شائعة بين الليبيين عامة فقد ذكر هيرودوتس أن الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس وللقمر[76]. وهو يصف كيفية تقديمهم للقرابين بقوله: «الطقوس التي يتبعها الليبيون الرحل ... هي كما يلي: إنهم يبدأون بأُذن الأضحية فيقطعونها ويرمونها فوق مسكنهم. وبعد الفراغ من هذا الطقس سيقتلون الحيوان بليّ رقبته. وهم يقدمون القرابين للشمس والقمر فقط وليس لأي إله آخر. وهذه العبادة يشترك فيها الليبيون جميعاً. أما المقيمون منهم حول بحيرة تريتونس فإنهم بالإضافة للشمس والقمر يعبدون الإلهة تريتون والإله بوزايدن والإلهة أثينا بشكل خاص». وقد أيدت المصادر المختلفة عبادة الليبيين للشمس فقد وجدت في سيوة نافورة مكرسة للشمس كما أن ابن خلدون ذكر أن البربر بصفة عامة كانوا في الزمن القديم يعبدون الشمس، بينما ذكر آخرون أن الليبيين كانوا يعبدون الشمس الغاربة باسم هامون «Hammon»[77]. والاسم الوحيد المعروف لإله الشمس الليبي هو جرزل «Gurzil». وهذا الاسم هو ما حفظه لنا كوريبّوس[78]. وهذا الإله يظهر محبوباً للغاية بين رجال القبائل فكاهنه «يرنا Ierna» يحارب ببسالة في المعارك كما أن الليبيين يحملون رمزه في وطيس المعركة. وهم يعتبرونه من نسل إله النبوءات في واحة سيوة. وكان هذا الأخير عبارة عن كبش ذي قرون وقد عرف فيما بعد بارتباطه الوثيق بالإله آمون طيبة المصري لأسباب سنبينها فيما بعد. وكان شكل جرزل شكل الثور ولعل تمثيل إله الشمس على هذا النحو نابع من قوة الشمس وروعتها ومزج هاتين الصفتين بقوة الثور وجماله. ويقابل هذه الظاهرة لدى الليبيين ظاهرة التقديس الذي كان

76- Herodotus, iv, p. 305. He has already excepted the Atarantes of the West, by Saying that they cursed the sun for its wasting heat (iv. P. 304).
77- Macrobius, Saturnalia, i. 21.
78- Corippos, Johannis, ii – 109, 405, iv. 665, 683, 1139, iv. 116, vii 304, 619.

يضفيه أهل هليوبولس في مصر على إله الشمس «الثور المقدس». ولقد وجدت على قاعدة مصباح روماني من القرن الميلادي الأول صورة رأس يظهر أنه رأس جرزل. كما وجد في القنيصية رأس منحوت نحتاً غير متقن يجمع بين صفات آمون وجرزل. ذلك أن له قرني الثور المقدس وقرني الكبش المقدس في آن واحد. ولا بد أن عبادة جرزل امتدت زمناً طويلاً في ليبيا فنحن نجد البكري يكتب في القرن الحادي عشر الميلادي أن قبائل متعددة في منطقة طرابلس من بينها قبيلة هوارة كانت تقدم الصلوات لصنم من الحجر أُقيم على رابية وكان اسمه «كرزا» وذلك من أجل حماية قطعانها. وموضع هذا الصنم والغرض من الصلاة والتقارب في الاسم، تشير جميعاً إلى أن المقصود بهذا الصنم هو جرزل.

نستنتج مما سبق أن أصل جرزل، إله الشمس، ينبع من تشخيص الظواهر الطبيعية وعبادتها منذ أقدم العصور وهو بذلك يشبه الإله الإغريقي هيليوس «Helius». أما ظهوره في الحروب فربما كان يرجع إلى اعتبار أتباعه له حامياً لهم ومبدداً للظلام عنهم. وهم عندما كانوا يدعونه لحماية قطعانهم فإنما كانوا يدعونه باعتباره رب الثيران. وهو على ذلك الاعتبار لا يمكن إلا أن يكون بطبيعته حامياً لقطعانها.

7- إله القمر: هذا هو الإله الوحيد الذي عبده الليبيون إلى جانبه إله الشمس حسبما ذكر هيرودوتس[79]. وفي الحديث عن عبادة القمر في شمال أفريقيا نشير إلى ما سبق ذكره من أن لحم الخنزير كان محرماً في الشمال الإفريقي حسبما رواه هيرودوتس[80] من أن أحداً من الليبيين لم يكن يربي الخنازير، وأن نساء برقة لم يكتفين بتحريم لحم البقر على أنفسهن بل حرمن لحم الخنزير كذلك. ونذكر بهذا الصدد أسطورتين ليبيتين قديمتين لما لهما من دلالة خاصة: الأولى تقول إن الناسامونيين الذين كانوا يعتبرون العقيق حجراً سماوي الأصل كانوا يخرجون للبحث عنه عندما يكون القمر بدراً. والثانية تقول إن الملح في سيوة كان يزداد أو ينقص تبعاً لازدياد القمر أو نقصانه

79- Herodotus iv, p. 305.
80- Ibid. 304.

– ولعل موقف المصريين القدماء من الخنزير يصلح لإلقاء بعض الضوء على موقف الليبيين القدماء منه؛ فقد كان المصريون يحرمون لحم الخنزير تحريماً قاطعاً ويعتبرونه نجساً. فإذا حدث أن لمسه أحدهم فقد كان عليه أن يسارع إلى نهر النيل ليغطس فيه بملابسه الكاملة تطهيراً لنفسه. وبالرغم من ذلك فإنهم كانوا يقدمون الخنزير قرباناً لإله القمر عندما يكون القمر بدراً. وكان يتحتم على مقدم القربان أن يأكل من لحم الخنزير في هذه المناسبة وإن كان محرماً عليه حتى أن يذوقه في الأحوال الأخرى. وربما كان للتحريم الليبي للحم الخنزير طابعاً مماثلاً.

8- الإله زيوس آمون، إله النبوءات:

يقدر بعض المؤرخين أن واحة سيوة ظلت ليبية حتى احتلها المصريون في منتصف القرن السادس قبل الميلاد. وعندما احتلوها وجدوا أن سكانها الليبيين كانوا يعبدون إلهاً مشهوراً لهم فأسماه المصريون زيوس آمونباسم رئيس الآلهة المصرية «آمون طيبة». والأساطير التي تدور حول أصل الإله الليبي تقول إنه كان راعياً وإنه أهدى عدداً كبيراً من المواشي للإله ديونيسوس «Dionysus» فكافأه الأخير بأن أعطاه أرضاً في طيبة ورفعه إلى مرتبة الآلهة. وتقول أسطورة أخرى إن ديونيسوس أو هراكليس «Heracles» كان يعبر الصحراء الليبية في طريقه إلى الهند فاشتد به العطش مما دعاه إلى الاستغاثة بأبيه الإله زيوس فأرسل إليه كبشاً. هو كبش آمون المقدس – دله على نبع ماء. وفي أسطورة ثالثة أن بعض الرعاة وجدوا في المنطقة بين قرطاجة وقورينة طفلاً جالساً على الرمل وهو يضع على رأسه قرني كبش ويتفوّه بالنبوءات – وعندما رفعوه عن الرمل توقف عن الكلام، فلما أعادوه إليه استأنف الكلام. وهكذا، ولمّا اختفى فجأة عرف الرعاة طبيعته الإلهية وبدأُوا يعبدونه باسم الإله زيوس آمون. ويقول ديودوروس الصقلي[81] إن آمون كان ملكاً ليبياً أسطورياً كما أن عدداً من الكتاب الكلاسيكيين يشيرون بوضوح إلى أصله الليبي.

81- Diodorus Siculus. iii, 68.

وهذه الأساطير إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى التقارب الوثيق الذي حدث في الأذهان بين الإلهين: آمون سيوة الليبي وآمون طيبة المصري. وليس على الآثار المصرية ما يثبت أن الإلهين صارا إلهاً واحداً في وقت من الأوقات. وصحيح أن موكباً يحمل رمز آمون طيبة كان يطوف أنحاء ليبيا مدة اثنتي عشر يوماً ولكن هذه العادة متأخرة وتنبع أصلاً من نفس مصدر الأساطير المذكورة آنفاً. وإذا نحن رجعنا لهيرودوتس فإنا نلمح في كتابته تمييزاً واضحاً بين هذين الإلهين؛ فهو دائماً يسمى الإله الليبي باسم زيوس آمون بينما يسمى الإله المصري آمون باسم زيوس طيبة. وهو يظن أن أتباع زيوس في سيوة سموا إلههم زيوس آمون تأثراً بالتقليد المصري في تسمية إله طيبة زيوس آمون. ويؤيد هذا الفرق الذي أوضحه هيرودوتوس أن قمبيز الثالث الفارسي أرسل حملة ضد زيوس آمون الليبي وأتباعه في سيوة لمحقه واسترقاق أتباعه بينما لم يتعرض أبداً للإله آمون المصري في طيبة؛ وهذا التمييز في المعاملة له مغزاه في الدلالة على أن زيوس آمون الليبي في سيوة كان غير زيوس آمون في طيبة بمصر. وإذا صح افتراض المؤرخين أن سيوة لم تتبع لمصر إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد فإن من المشكوك فيه أن يصبح إلهٌ جديد قدم إلى سيوة مع الفاتحين ذا شهرة عظيمة واسعة مثل الشهرة التي كان يتمتع بها الإله زيوس آمون الليبي.

وهذا الإله كان إله نبواءت في الدرجة الأولى فلقد أحرز موحاه في سيوة شهرة عظيمة إلى حد أن أهالي أثينا كانوا يبعثون إليه بأسئلتهم. كما أُقيمت له معابد في قورينة وفي أماكن متفرقة من بلاد اليونان ذاتها. ونحن ما زلنا نذكر الرحلة التي قام بها الاسكندر الكبير لمعبد هذا الإله في سيوة[82].

وعلى هذا فإن آمون الليبي كان يختلف اختلافاً كبيراً عن آمون المصري؛ فقد كان الأول إله نبوءات في المرتبة الأولى بينما كان الآخر إله زراعة وحصاد قبل أن يصبح رئيساً للآلهة المصرية باسم آمون رع، حامي الحمى ومانح

82- انظر قصة إنشاء موحى آمون في سيوة وشهرة هذا الموحى ص 661 – 662 و 664 – 665 الملحق «ب».

البركات. وهو وإن كان له موحى إلا أنه لم يبلغ من الشـهرة كإله نبوءات ما بلغه آمون سـيوة؛ ومـا دام أن وظائفهما كانت متغايرة فـإن أصليهما كانا متغايريـن دون ريب. وفي الحديث عن هيئة الإلـه الليبي يقول أوريك بيتس[83]: «من المهم أن نلاحظ حالياً أن هذا الإله لم يكن مشـخصاً في أعين أتباعه تشخيصاً بشرياً ولا حيوانيّاً».

وكانت أجوبة آمون الليبي تنقل للمستفسرين بطرية مشابهة للطريقة التـي كان الليبيـون يتبعونها عند الاسـتعانة بأسلافهم على اسـتطلاع المسـتقبل أي بالأحـلام التي كانت تعتبر وحياً. وكانت طريقة الاستشـارة في سـيوة تتم بحمـل رمز الإله في موكب يطوف بـه حدائق النخيل المجاورة لمعبـده. وفي هـذا الموكـب كان ثمانون من كهنـة هذا الإلـه يحملون على أكتافهـم مركباً ذا ثلاثة صـوارٍ – وهو طقس يظهر فيـه تأثير الإله المصري آمـون رع – وعليه المعبد الذهبي الخاص بهذا الإلـه. وكان ذلك المركب يحلى بصحـاف فضيـة تتدلى من حافة المركـب العليا بينما كان تمثـال الإله ذاته يحلـى بالحجارة الكريمة. وكان يسـير خلف حملة المركـب موكب طويل من العذاري والعقائل وهن يرتِّلْن «ترانيم غريبة باللغة الليبية» من أجل كسـب رضـا الإله وإقناعه بإعطاء مستشـيريه جواباً مرضياً. وكان الموكب يسـير فـي الاتجاه الذي يبدي هـذا الإله رغبته فيه. وبعد انتهـاء هذا الاحتفال كان آمون سيوة يعطي جوابه بالإشارة على الأسئلة المطروحة عليه. وفي العصر الكلاسيكي كان أحد كهنته يفسّر تلك الإشارات. وكان ذلك الكاهن حراً في صوغ تلك الأجوبة شـعراً على طريقة أرقى المواحي الإغريقية. وكان الرجال والنساء من أتباع هذا الإله يقومون بخدمته وعبادته فكانت النساء تشترك في مواكبه إلى جانب الرجال. وقد ذكر هيرودوتس في قصته القائلة إن أصل إلـه سـيوة من طيبة بمصر – يلاحَـظ ان القصة ذاتها من طيبـة أيضاً – ان موحى هذا الأله في سيوة إنما أسسته امرأة[84].

83- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 193.
84- Herodotus, ii, pp. 124 – 125.

ويقـول أوريك بيتـس[85] إن الحيوان المقدس لهذا الإله الليبي كان كبشـاً. وهذه حقيقة تلقفها المصريون بنهم لدى استيلائهم على سيوة لأن الحيوان المقدس لإلههم آمون طيبة كان الكبش أيضاً. توافق يؤدي إلى تعزيز الروابط بين الإلهين.

وقد يشـك المرء فـي أن تقديس أتباع آمون الليبـي للكبش المقدس لدى المصريين إنما جاء نتيجة للأسـاليب والمؤثـرات المصرية ولكن البينات المتوافرة بهذا الصدد تؤدي إلى اسـتنتاج أن الكبش من الحيوانات المقدسة البارزة لدى الليبيـين؛ أي إن يتقديـس الليبيين لهذا الحيوان إنما هو نـاتج عن دوافع أصيلة لا علاقة لهـا بتقديس المصريين للحيوان ذاته. أمـا كيف ارتبط تقديس هذا الحيوان بآمون سـيوة فهي مسـألة تسـترعي النظر ويصعب تفسيرها. وإن كان من المرجح أن النظرة السـائدة بخصوص آمون سيوة هي أنه يمثل فقط مرحلـة في عبادة الكبش الإله. ومما يؤيـد وجهة النظر هذه أن عبادة الكبش لم تكن شائعة في ليبيا فقط وإنما في جميع الشمال الإفريقي.

والمعروف أن الكبش البربري وجد في ليبيا منذ القدم وأن قوته وسـرعته واستحالة الوصول إلى أماكن تجواله في المناطق الجبلية التي كان يتعشقها جعلت منه في نظر العقول البدائية حيواناً جديراً بالإعجاب والتقديس.

ويجوز لنا أن نقول إن عبادة آمون سيوة ظلت محلية حتى اقترن هذا الإله فـي ذهن الناس بآمون طيبة المصري، وآنذاك شـاعت عبادته وانتشـرت على نطاق واسـع في ليبيا. ومما يدل على شـيوعها على ذلك النحو كثرة الأماكن الليبية المسـماة باسـم هذا الإله فهنالك معبد آمون فـي أوجلة. وتل آمون جنوبي بنغازي، ومحطة آمون على ساحل خليج سرت الكبير، ومحطة آمون قرب القوس الرخامي عند نصب الأخوين فيليني «Philaenorum Arae». ويقـول أوريـك بيتس[86] إن أهم تطور أجنبي طرأ علـى الإله الليبي – المصري آمون هو تبني قرطاجة له تحت اسـم «بعل حامـون» (Ball Hammon).

85- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited, St. Martin s St., London, 1914, p. 195.
86- Ibid. pp. 198 – 199.

ويلاحظ بهذا الصدد أن عدم تسـمية القرطاجيين لأبنائهم بأسماء مسندة لهذا الإله كان ناجماً عن أن هذا الإله احتفظ لديهم بطبيعته الليبية كإله للأموات مما جعلهم يتشـاءمون من تسـمية أبنائهم باسـم يتصل بالموت، ويتجنبون بالتالي تسميتهم على ذلك النحو. ولقد وجد أن ثلاثة أرباع الألواح التـي عثر علـى آلاف منها في قرطاجة كانت مكرّسـة للإله «بعل حامون» والإلهة تانيت «Tanit»؛ وهذا أمر مسـتغرب لأن المفروض الخالصة من أمثال بعليم وعشتار وإشمون وملكارت.

ولقـد كان «بعل حامـون» بالفعل شـكلاً قرطاجياً من أشـكاله الإله الليبي – المصري آمون. يدل على ذلك شـكله الـذي يظهر أحياناً على هيئة الكبـش المقدس أو على هيئة التماثيل التي وجـدت له في المقابر البونيقية والتي تظهره وهو يلبس قرني الكبش. وفي حالة واحدة فقط من هذه الحالات لم يكن يلبس القرنين ولكنه كان يحمل على سـاعده الأيسـر كبشاً قائماً. ويذكـر بهذا الصـدد أن مقدمات السـفن القرطاجية كثيراً مـا كانت تأخذ شـكل إله رأسه رأس كبش. ويذكر سـيليوس الإيطالي[87] في وصفه لمعركة بحرية بين القرطاجيين وأعدائهم أن قبطان إحدى السفن القرطاجية عندما رأى سـفينته قد خرقت انتضى سـكينته وطعن نفسه بها وقدم دمه قرباناً بسكبه بين قرني الكبش المقدس على مقدم سفينته. وفي المواقع الفينيقية في جزيرة سـردينيا من مثل مستوطنة ثَرُّس «Tharrus» وجدت عدة تماثيل لرؤوس أكباش على الطراز المصري مسـتوردة عن طريق القرطاجيين مما يثبت أن «بعـل حامون» القرطاجي إنمـا هو آمون الليبي – المصـري. ولا يعرف إلى متى اسـتمرت إفريقية القرطاجية تعبد هذا الإله وإن كان يعتقد أن عبادته تلاشت إثر انتشار المسيحية في المنطقة.

وفـي ليبيا ذاتهـا طرأ تطور جديد على طبيعة هذا الإله؛ ذلك أن اتسـاع رقعة البـلاد وغلبة الطبيعـة الصحراوية عليها وصعوبة معرفة المسـالك بـين واحة وأُخرى مـن واحاتها كانت جميعاً تسـتدعي وجـود إله مواصلات يكون رفيقاً ودليلاً إلهياً للمسـافرين. ولقد سـبقت الإشـارة إلى أسـطورة

87- Silius Italicus, De Bello Punico, XIV. 452 Sq.

تلقـي بعض الضوء على هـذا التطور في طبيعة هذا الإله وهي الأسـطورة المتعلقة بسفر ديونيسـوس (أو هراكليس) عبر الصحراء الليبية إلى الهند واشـتداد الظمإ به ثم استغاثته بأبيه الإله زيوس – آمون الذي أغاثه بكبش حفر بقائمتيه الأماميتين حتى اسـتخرج الماء. وهنالك أسطورة أُخرى تشير إلى الإرشـاد الإلهي وتتعلق برحلة الاسـكندر المقدوني إلى سيوة. فقد وجد الاسـكندر نفسـه وجيشـه، بعد أيام من مغادرتهم الساحل، وسط متاهة يسـتحيل عليهم الخروج منها. ولم يلبث ماؤهم أن نفد وكادوا يهلكون لولا أن تدخلت عناية آمون الربانية فجعلت السماء تمطر عليهم ما يبل ظمأهم ثم وجهت خطاهم حتى وصلوا سيوة وعادوا منها. وكان دليلهم في الحالتين زوج من الغربان وقيل من الأفاعي.

وفي تاريخ سـيوة الذي ألفه شـخص مجهول باللغة العربية قصة لها مغزاها بالنسـبة لهذا الموضوع خلاصتهـا أن أحد حكام مصر قضى ببعض العقوبـات على بعض أتباعـه فهربوا من وجه العقاب إلـى الصحراء وليس معهـم إلا زاد قليل لم يلبث إلا قليـلاً حتى نفد. وآنذاك رأوا كبشـاً يركض مبتعـداً بين التلال فسـاروا فـي أثره حتى وصلـوا إلى مدينـة مأهولة تحف بها البسـاتين والأشـجار وتجري من تحتها الأنهـار. وكان أهلها لا يدفعون أية ضرائب. وعندما سألهم القادمون عن البلد الذي ينتمون إليه أجابوا بأنهم لا علاقة لهم البتـة بالعالم الخارجي، وعاش هؤلاء الغرباء فترة طويلة في تلك المدينـة ثم عـادوا لمصر. وحاولوا بعد ذلك أن يجدوا تلـك المدينة الواحة ثانية دون جدوى. ولعل هذه القصة التي يظهر الكبش فيها دليلاً للمسـافرين إنما هي واحدة من عدة قصص مشـابهة لا بد أنها كانت متعددة في وقت قديم؛ وهي تدل على مدى عناية آمون الليبي، إله التنبؤات في سـيوة، بالمسـافرين في الصحراء.

9- إله السماء Deus Coelestis

أثبت أحد البحاثة الفرنسـيين[88] وجود إله للسماء بين الليبيين القدماء. ولكنه كان إلهاً ذا طبيعة غامضة عامة. وأقدم مفهوم لليبيين عن السماء.

88- بحث بعنوان Toutain, J., De Saturni Dei in Africa Romana Cultus.

وهـو مفهوم اسـتمر سـائداً حتى بدايـة القرن السـابع قبل الميـلاد. هو أن السـماء، في نظرهم، كانت عبارة عن سـطح صلب معلق فوق الجو الأرضي. وقد أشـار هيرودوتس إلى هذه الفكـرة في سـرده لقصة مسـاعدة الليبيين للإغريق في القدوم إلى موقع قورينة من أزيرس عندما قال إن الليبيين مدحوا ذلك الموقع للإغريق بقولهم «إن سـماءه مثقوبة»[89] أي غالباً ما تمطر. ولكن المؤسـف حقاً أنه لم توجد تفاصيل عن هذا الإله. ولعل أحسـن ما يدل على طبيعته هو دراسـة الإله زحل الذي شـاعت عبادته في الشـمال الإفريقي خـلال القرنين الثاني والثالث للميلاد. فقـد وجدت على الألواح الخاصة بزحل رموز للظواهر السـماوية مثل قرص الشـمس والنجوم والهلال. وكان أبرز ما تتميز به طبيعته أنه كان أباً للسـماوات وإلهاً للطقس ولابد أن إله السـماء الليبـي القديم كان يشـبه زحل في طبيعته العامة مـن مثل حماية الزراعة والقطعان. ولا بد كذلك أن أتباعه من قدماء الليبيين كانوا يقدمون له بواكير الفواكـه من أعناب وتمور، ثم زيت الزيتـون والنبيذ وأكواز الصنوبر، ثم الثيران والنعـاج والبقر. وكان الليبيون يعتقدون أن إله السـماء هـذا، وإن كان علياً عاليـاً لا يموت، كان يموت موتاً مؤقتاً في فصل الخريف ويحتفلون بانبعاثه في الربيع؛ ولعل عادة أكل الثوم خلال أُسـبوع كامل من شـهر أكتوبر – تشرين الأول في سـيوة ترجـع إلى أصل قديم ناشـيء عن الصيام حـداداً على الموت المؤقت لهذا الإله.

10- إلهة السماء «Dea Coelestis»:

كانت هذه الإلهة شـريكة لإله السـماء ومشابهة له في طبيعته. وقد التبـس أمرها في أيام القرطاجيين بالإلهة القرطاجية تانيت. أما في العصر الروماني فقد عرفت باسم إلهة الأغذية «Dea Nutrix»

11- لإثينا إلهة الأوزيين:

عبـد الأوزيـون الليبيون حول بحيـرة تريتونس إلهة أسـماها هيرودوتس وغيره أثينا. وقد كان لها معبد عند الأوزيين. ووصفها هيرودوتس كما يلي:

89- Herodotus, iv. P. 295.

«تقيـم عـذارى الأوزيين احتفالاً سـنوياً تكريماً للإلهـة أثينا فيقفن في صفـين متقابلين ويتراشـقن بالحجارة والهـراوات. وهن يقلـن إن هذه العادة العـادة طقـس مـوروث وإنهـن يكرمن بـه إلهتهـن التي هي نفـس الإلهة الإغريقيـة أثينا. وإذا ماتت إحداهن بسـبب ما يصيبها من جروح فإن الأوزيين كانـوا يعتبرون أنها لـم تكن عذراء حقيقة. وكان يسـبق بدء ذلك الاحتفال طقس آخر هو اختيار أجمل واحدة بين العذارى المشـتركات في الحفل. ومتى تم اختيارها فإنها كانت تلبَّس بحضور الجمهور خوذة كورنثية وبزة عسـكرية إغريقية ثم تمتطـي عربة حربية يقودونها بها في موكب يدور حول البحيرة. ويقـول الأوزيـون إن أثينا هي ابنة الإله بوزايدن، إله بحيـرة تريتونس. ويقولون إنها تشـاجرت مع أبيها واسـتغاثت بالأله زيوس فوافق على أن يعتبرها ابنة له فصارت كذلك»[90].

ويعلـق أوريك بيتس[91] علـى رواية هيرودوتس هذه ثم يسـتخلص منها النتائج التالية:

1- إن كون هذه الإلهة من نسـل بوزايـدن وتريتونس يمكن أن يعني أنها كانت إلهة بحر، إلا ارتباطها بزيوس لايؤيد هذه النتيجة. وإذن فإن التفسـير الوحيد لطبيعتها هو أن نقول إنها لم تكن طبيعة محددة واضحة المعالم. ولذلك فإن من المنطقي أن نلحقها إما بإله السماء أو بإله البحر.

2- تشير الحفلة السنوية لهذه الإلهة إلى أنها كإله السماء كانت على علاقة بفصول السنة.

3- مراسـم تسـليح العذراء: إن اختيار أجمل العذارى وتسليحها على الطريقة الإغريقية الممتازة أمر له مغزاه. فقد كانت هذه العذراء المسـلحة، الممتطية عربة حربية بمناسـبة الاحتفال، إنما تمثل الإلهة المحتفل بها والتي لا بد أنها كانت ذات صبغة حربية.

90- قارن أيضاً برواية هيرودوتس هذه رواية ميلا (Mela I -7) الذي لا يضيف جديداً لما ذكره هيرودوتس سوى قوله إن هذا الاحتفال السنوي كان يقام يوم عيد ميلاد الإلهة. Herodotus iv, p, 302

91- Bates, Oric, The Eastern Libyans, Macmillan & Co. Limited. St. Matin s St., London, 1914, p. 204.

4- الموكب: كانت الإلهة، ممثلة في شخص العذراء المذكورة، تدور حول بحيرة ترتيونس ومن خلفها موكب المحتفلين.وكانت الغاية من هذا الطقس استنزال بركات الإلهة على البلاد. وكانت مسيرة الموكب تختتم بالمبارزة التي سبقت الإشارة إليها والتي كانت بديلاً لتقديم القوانين.

5- المبارزة: هي المناورة الحربية التي كان الاحتفال يختتم بها، وهي في الواقع ذات دلالة كبيرة على طبيعة هذه الإلهة. ونحن نلاحظ أن العذارى فقط كان يسمح لهن بالاشتراك في الحفل، ومن ماتت منهن نتيجة لما أصابها من جروح أثناء هذه المناورة كان يفترض أنها إنما تلقت ما تستحقه من عقاب لمشاركتها في الاحتفال وهي تعلم أنها كانت فاقدة لعذريتها وأنه لا يجوز لغير العذارى أن يشاركن فيه. ونحن نلحظ في هذه النظرة اهتماماً كبيراً بالعذرية مما يدل على أن طبيعة هذه الإلهة كان فيها جانب قوي من العذرية. وليس صعباً أن ندرك مغزى المبارزة ذاتها، فمن الواضح أنها كانت أشبه بصلاة استسقاء وأنها كانت تمثيلاً للكفاح بين الجفاف والمطر. ومثل هذه الظاهرة بين الشعوب البدائية تفضي بنا إلى القول إنها كانت عند الأوزيين تهدف إلى إبعاد الشر واستجلاب الخير والبركة لأرض القبيلة. ولذلك فقد كان الاحتفال يختتم بها بقصد تأمين سقوط كميات وافرة من المطر في فصل الشتاء التالي.

كل ذلك يرجح الظن أن هذه الإلهة لا تمثل إلا مرحلة محلية من مراحل عبادة إلهة السماء التي سبق أن ذكرنا أنها شريكة لإله السماء، وعند هذا الحد نلمح ارتباطاً محتملاً بين كل من إلهة الأوزيين المرسلة للمطر وإلهة السماء الليبية بشكل عام وبين إلهة الدلتا الغربية في مصر وهي نيث «Neith» إلهة مدين سيس «Sais» التي ألحقها عدد من الكتاب الحديثين بأثينا الأوزية. وقد عرفت عبادة نيث في مصر منذ عصر ما قبل الأسرات ووصف على تمثال محفوظ في الفاتيكان بأنها «أم الشمس» وبأنها «بدأت تنجب قبل أن تولد». وقد ذكر بلوتارك أن معبد هذه الإلهة في سيس يحمل نقشاً ترجمته كما يلي: «أنا كل ما وجد وكل ما هو موجود وكل ما سيوجد، ولم يكشف أحد طرف ردائي».

ويؤكد المصريون وجود النص السابق ذاته منقوشاً على مدخل معبدها ويضيفون إلى ما ذكره بلوتارك «والثمرة التي جئت بها هي الشمس»

مما تقدم يظهر أن نيث كانت أماً عظيمة للطبيعة تتصف بالعذرية، وهذه الصفة هي التي حملت الإغريق على اعتبارها أثينا.

وفيما يلي بيان بأوجه الشبه بين الإلهة نيث والإلهة الأوزية أثينا وهما اللتان أسمى هيرودوتس كلاًّ منهما باسم أثينا:

أثينا مدينة سيس المصرية (نيث)	أثينا الأوزين الليبيين
1- إلهة السماء	إلهة السماء
2- الأم العذراء	عذريتها أكيدة ومهمة
3- إلهة النباتات	باعثة المطر
4- لها صبغة حربية مرحلية	تمثلها في حفلها عذراء مسلحة ويختم الحفل بمناورة حربية
5- شكلها شكل بقرة	لحم البقر محرم في ليبيا

ولقد ذكر بعض المؤرخين المعاصرين نظرية مفادها أن الإلهة نيث كانت إلهة ليبية لليبيين الذين كانوا يعيشون في مصر في عصر ما قبل الأسرات ثم اضطرت كما اضطروا هم أنفسهم إلى الرحيل إلى الشمال الغربي من مصر حيث استقرت واستقروا. والنظرية تتسم بالذكاء والمنطق ولكن لم يكتشف حتى الآن ما يؤيدها من الآثار. ومن المحتمل أن يكون هنالك نوع من الارتباط بين الإلهتين نظراً لظهور رمز الإلهة المصرية ( ) وشماً على أجسام الأسرى الليبيين دون سواهم في نقوش موقع سيس الجغرافي في الدلتا الغربية.

الطابع العام للديانة الليبية القديمة

مما تقدم يتضح لنا أن الليبيين الذين بلغوا في الدين مرحلة تشخيص الآلهة كبشر ظلوا يتعلقون بقوة في عدد كبير من الأفكار الخاصة بألوهية الحيوانات. ويظهر أن الديانة الليبية كانت إيقونية جزئياً وأنها كانت تتصف بالتنوع وبالميزات المحلية الكثيرة كما أنها كانت تخضع إجمالاً لأفكار قليلة بسيطة وشائعة في جميع الشمال الإفريقي. ولهذا فإنها جمعت بين السحر وعبادة عدد من آلهة طبيعتهم واضحة محددة وآخرين لم تعرف طبيعتهم إلا بشكل عام كإله السماء مثلاً. ولا شك أن الليبيين القدماء كانوا يتحلون بفهم عميق لوجود حياة أُخرى بعد الموت.

ويبدو من طبيعة هذه الديانة أنها كانت من إبداع عنصر متفائل بالنسبة لهذه الحياة وللحياة الأخرى. وبعكس ما عليه الحال في أغلب الديانات الإفريقية القديمة. وإذا استثنينا أبسط العقائد فليس لدينا من البينات ما يبرر القول إن الديانة الليبية القديمة كانت ديانة عقائدية. فقد كانت بإيجاز ديانة بربرية. نصف متطورة. ونابعة مباشرة من الاعتقاد بوجود أرواح في كل مكان ظواهر الطبيعة.

وإذا نحن فتشنا عمّا يناظر هذه الديانة في الديانات القديمة المعروفة الأخرى فإنا نجد التشابه أكثر ما يكون بينها وبين الديانة المصرية. ففي مصر ارتبطت الشمس بالثور كما هي الحال في ليبيا. وتطور الاعتقاد بوجود حياة أُخرى إلى حد كبير. واعتبر الكبش. كما هي الحال في بقية الشمال الإفريقي. حيواناً مقدساً. ولقد وجدنا تشابهاً كبيراً بين الإلهة المصرية نيث. إلهة مدينة سيس. ونظيرتها الليبية أثينا الأوزية. ويقول أوريك بيتس[92]: « إن أوجه الشبه الكثيرة بين الديانتين توضح أن العلاقة بينهما كانت أقوى بكثير مما كانت عليه مثلاً بين الديانة الليبية والديانات السامية القديمة. وكما ان عنصراً ليبياً معيناً اندمج في اللغة المصرية القديمة فإن عناصر مماثلة

92- Ibid., p. 207

من الديانة الليبية القديمة دخلت. على الأرجح. الديانة المصرية القديمة وإن كنا لا نستطيع أن نتبينها في الوقت الحاضر نظراً لقلة المعلومات المتوافرة بالنسبة لليبيين القدماء بشكل عام».